الفصل الثالث

الخطابة السياسية في العصر الأموي

المبحث الأول

تطور الخطابة إلى القرن الثاني الهجري

ازدهرت الخطابة السياسية في العصر الأموي وبرز خطباء فيها فاتسمت بخصائص شتى لم تجتمع للخطابة قبل الاسلام، ولا في عصر الإسلام، لهذا صح ان نعد تلك الحقبة مثالا للخطابة العربية الإسلامية، فقد جارت الخطابة الشعر في العصر الأموي، إذ تناولت شؤون الدولة العامة ومثلت السياسة أصدق تمثيل وأصبحت السلاح القولي الذي يعتمد عليه الساسة من الأحزاب المختلفة في الدعاية واستمالة القلوب اليهم وتهديد الخارجين عليهم، وقد تظافرت الخطابة والشعر على تحقيق هذه الغايات غير أن الشعر كان من عمل الدعاة والأعوان، أما الخطابة فكانت من عمل الساسة في أكثر الأحيان، وعليه فنقول كما قال المؤرخون إن الخلافة الإسلامية تحولت إلى دولة سياسية على يد بني أمية، فإن شعار الخلافة عندهم صولجان الملك وإن درّة الخليفة في يدهم سيف الإمارة، ونرى كيف تحولت وحدة الدولة الدينية إلى حزبية وطائفية ومذهبية تتقاتل وتتناحر، وكيف كان ذلك داعياً إلى ظهور حركة أدبية قوية تمثلت في عناصرها المختلفة شخصيات تلك الأحزاب ومقوماتها السياسية والعقلية والنفسية، حينما تصدى كل حزب لنشر مبادئه والدفاع عن آرائه ودحض حجج خصومه ما استطاع إلى ذلك سبيلا فكانت الخطابة والشعر من أهم الوسائل إلى ذلك وأقربها، ونلاحظ كيف وجد المتصارعون في ميدان السياسة على اختلاف وجهاتهم عند الخطابة سلاحاً لا يفل، ووجدت الخطابة عندهم خير موئل وأوسع رحاب فاعتمدوا عليها جميعاً اعتماداً كبيراً، واستجابت لهم، فأعطتهم خير ما لديها من عون صادق وتأييد، فشهدت كل نزاع وكل صدام بين هذه الطوائف وخاضت معها كل معركة، وشاركتها في كل جولة حتى مثلت في النهاية الحياة السياسية، والحزبية خاصة، وجوانب الحياة عامة أصدق تمثيل، وتطورت الخطابة في هذه الدولة المتطورة وانها سايرت مراحل انتقالها المختلفة ومثلت أحوالها السياسية والدينية والاجتماعية بظهور خطباء كانت خطبهم تتناول هذه الجوانب الثلاثة، وكانت

الخطابة مرآة صادقة عكست هذا التحول، وسجلت مظاهره، وترجمت عن حقيقته على لسان خلفائها ورجالها، وان ما كانوا يسلكونه من مناهج في كلمهم تفصح عن خطابتهم، وكيف كان تاريخهم الذي اسلفنا القول عنه بالفصول السابقة متجلياً في هذه الخطابة، ومنها أو منهما معاً يتكامل التاريخ الصحيح لأيامهم ودولتهم، وكان بنو أمية يدافعون من خلال المنابر وأماكن الخطابة أو المناسبات التي تقتضي الخطبة عن احقيتهم في الخلافة فهذا معاوية ابن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية عام ٤١هـ يقول في إحدى خطبه إنه لا يقاتل أهل الكوفة من اجل صلاة أو زكاة أو حج لانهم يصلون ويزكون ويحجون فهو يصارح اهل الكوفة بانه لا يقاتل على فريضة من الفرائض وانما يقاتلهم من اجل الإمارة أي ليتأمر عليهم وعلى رقابهم رغم أنوفهم، وهذا سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام يقاتل من اجل الدين وانه هو واهل بيته أحقّ بالخلافة، وانه لم يخرج أشراً ولا بطراً وانما خرج من اجل إصلاح أمة جده محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وسنتناول خطبة سيدنا الحسين واخته زينب الكبرى، ثم نتناول نموذج لخطب معاوية وبعض ولاته ومواليه مثالا للخطابة في العصر الأموي وكذلك نأخذ مثالا لخطب بعض زعماء الخوارج وقبل الخوض في هذا نبين العوامل التي أدت إلى ازدهار الخطابة في هذا العصر.

عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأموي

١- الأحزاب السياسية: تعددت الأحزاب السياسية من أمويين وزبيريين وخوارج وشيعة وقامت دعاية كل منها على الخطابة إذ كان لكل حزب خطباء هم السنته الناطقة باسمه.

٢- الحرية: وقد كانت حرية الرأي بالقول مكفولة، فيستطيع الخطيب أن يجهر برأيه في الناس، ولم يكن بُدّ في ذلك العصر من كثرة الخطباء، لان الأحداث كثيرة ومتلاحقة، ولأن الخطابة وسيلة التأثير في الجماهير، إذ كانت تقوم مقام الصحافة والإذاعة في العصر الحاضر. وهنالك أسباب كفلت للناس حرية

القول منها أن معاوية مؤسس الدولة أعلن انه يسوس الناس بالحلم وسعة الصدر والتجاوز عن المساءة القولية فهو القائل (ان لم يكن إلا ما يشتفي به القائل بلسانه فقد جعلت له دَبْرَ أذني، وتحت قدمي)[1].

وهو القائل (لو أنّ بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كنت إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها)[2].

وقد تذرع بحلمه في كثير من الأوقات على معارضيه، والمتهجمين عليه وحاكاه كثير من خلفائه في تحلمهم، ومنها كذلك أن الأحزاب كانت تنعم بحريتها الكاملة، لأنها ليست في قبضة الحكومة وكيف لا يشعر بالحرية كاملة من يثور على الحاكم ويشن عليه الغارات؟ وإذا كانت الحكومة الأموية قد حاربت الأحزاب فان هذه الحروب كانت تؤرث الخطابة وتفسح مجال القول أمام الخطباء.

وكثيراً ما كانت الأحزاب في مواطن شتى، وكثيراً ما كانت بنجوة عن عيون الحكام وسلطانهم، ثم أن كثيراً من المنتمين إلى الأحزاب لم يكونوا يرهبون من إعلان رأيهم كما نجد في خطبة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما وفي خطبة عبد الله بن الزبير عند معاوية حينما أراد البيعة لابنه يزيد وعارضاه فيها ولم تكن هذه الشجاعة النفسية مقصورة على الزعماء أو المتحزبين فقد شهد أعرابي أمام معاوية بشيء كرههُ، فقال معاوية: كذبت يا أعرابي، فقال الأعرابي الكاذب والله مُتزَمِّل في ثيابك، وحَصَب بعضهم المغيرة بن شعبة[3] وهو يصعد المنبر والياً من

---

[1] ينظر : ابن عبد ربه العقد الفريد، جـ٢ ص١٤ من خطبته في المدينة.

[2] ينظر : اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢ ص٢٨٣.

[3] المغيرة بن شعبة: هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي أبو عبد الله أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم صحابي يقال له مغيرة الرأي ولد في الطائف سنة ٢٠ ق.هـ/ ٦٠٣م اسلم سنة ٥هـ واصبح والياً على البصرة من قبل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم والياً على الكوفة اعتزل الفتنة بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية توفي في الكوفة سنة ٥٠هـ/٦٧٠م وله ١٣٦ حديثاً وهو أول من وضع ديوان البصرة (ينظر: الطبري تاريخ الرسل والملوك جـ٦ ص١٣١ ابن الاثير، الكامل في التاريخ جـ٣ ص١٨٢).

قبل معاوية، وتندر بعضهم بالحجاج لما صعد المنبر ومكث برهة لا يتكلم، ثم قال بعضهم له بعد سماع خطبته: إن صدقناك أرضينا الله، وان غششناك أغضبنا الله، فغضبك أهون علينا من غضب الله.

وقال بعضهم لعبد الملك بن مروان وهو يخطب: اتقِ الله.

الحروب والثورات

٣-وكانت الحروب والثورات مُذكية للخطابة، إذ كان القواد والفاتحون ذوي لَسَن يعتمدون عليه في تحميس جنودهم، وكان الثوار وقادتهم فصحاء يتخذون الخطابة سلاحاً من أسلحتهم ولهذا نجد كثيراً من الخطب موصولة بأحداث سياسية ووقائع حربية.

٤- فصاحة العرب: وكان العرب في ذلك العصر على قدر عظيم من المقدرة البيانية والبديهية المسعفة والفصاحة المتوارثة.

ذلك أن سليقتهم لم تكن قد فسدت، وحرصهم على لغتهم وأدبهم كان شديداً، وكان الخلفاء والأمراء ينشئون أبناءهم في البادية لتكفل لهم التربية لأن فيها منافع، منها فصاحة القول. ولعل معاوية قد توخى ذلك حينما بعث ابنه يزيد[١] عند أخواله بني كلب مع أمه ميسون[٢]. ولما وجد عبد الملك أن ابنه الوليد يلحن قال: أضرّ بالوليد حبنا له فلم نرسله إلى البادية.

وإذا كان داء اللحن قد دب إلى بعض الخطباء، فانه كان ضئيلاً وقليلاً على انه لم يفسد ملكة البيان، وتدفق التعبير، لانه خطأ أعرابي نادر.

---

[١] يزيد بن معاوية: هو يزيد بن أبي سفيان الأموي ثاني خلفاء بني أمية في الشام ولد سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥م بالماطرون ونشأ بدمشق وولي الخلافة بعد وفاة ابيه سنة ٦٠هـ توفي سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م بحوارين (من أرض حمص) واليه ينسب نهر يزيد. ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي جـ٢ ص١٦٨، المسعودي، مروج الذهب جـ٢ ص٦٧.

[٢] ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ١ ص٢٩٣.

٥- تقرير الخطباء: واذْ كانت السياسية مشغلة العصر وكانت الخطابة من أعظم عدد السياسي، ارتفع شأن الخطابة والخطباء، وزاحموا بمقدرتهم الخطابية أبناء الأشراف والسادة، فلم تعد المناصب الكبار محبوسة على هؤلاء، ويظهر أن نزعة العربي إلى الفخر بسيفه ولسانه منذ الجاهلية ما زالت عظيمة السلطان في العصر الأموي يدل على ذلك أن يزيد بن معاوية امتنَّ على زياد بن ابيه[١] بقوله ((لقد نقلناك من ولاء ثقيف إلى عز قريش، ومن عُبيد[٢] إلى أبي سفيان، ومن القلم إلى المنابر)).

٦-على أن الخطابة ازدهرت لأسباب أخرى منها الجدل المحتدم بين الفرق الدينية ومنها كثرة الوفود على الخلفاء والولاة وقيام بعض الوعاظ بالخطابة في المساجد ووعظ الناس منذ أن نصبهم معاوية لهذا الغرض ومنها إقبال البلغاء على القرآن الكريم يحفظون، ويتذوقون ويدرسون، ونماء الثقافة اللغوية والأدبية في تلك الحقبة والعناية بحفظ ما خلف السابقون وقد أشار الجاحظ في كتابه البيان

---

[١] زياد بن أبيه: هو زياد بن أبيه، أمير من الدهاة القادة الفاتحين الولاة من اهل الطائف ولد سنة ١هـ اختلف في اسم ابيه فقيل عُبيد الثقفي وقيل أبو سفيان وامه سمية وهي جارية الحارث بن كلدة الثقفي وكان كاتباً للمغيرة بن شعبة ولاه الأمير علي عليه السلام فارس والحقه معاوية بنسبه سنة ٤٤هـ توفي سنة ٥٣هـ/ ٦٧٣م. (ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٦ ص١٦٢ ابن عساكر، تهذيب ابن عساكر جـ٤ ص٤٠٦ ابن الأثير، الكامل في التاريخ جـ٣ ص١٩٥).

[٢] عبيد الله بن زياد بن ابيه: هو عبيد الله بن زياد بن أبيه وال فاتح من الشجعان، جبار، خطيب ولد بالبصرة سنة ٢٨هـ/ ٦٤٨م وكان مع والده لما مات بالعراق ولاه عمه معاوية خراسان سنة ٥٣هـ ثم أصبح والياً على البصرة وأقره يزيد بن معاوية على ولايته وطلب منه أن يقاتل الحسين عليه السلام فقتل الحسين على يده وكان يدعى ابن مرجانه قتله إبراهيم بن الاشتر في خازر من أرض الموصل سنة ٦٧هـ/ ٦٨٦م. (ينظر: ابن قتيبة، عيون الاخبار جـ١ ص٢٢٩، الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٦ ص١٦).

والتبيين[1] على أن بعض الخطب كانت مدونة وكان بعض الخطباء يحفظونها أو ينقلون منها.

الخصائص الفنية للخطابة في العصر الأموي

إن الخصائص الفنية للخطابة في هذا العصر تتمثل في اللفظ والصورة والمضمون والمعنى والأسلوب، ففي اللفظ والصورة نرى سهولة الألفاظ والعبارات، وإشراقها وحسن ديباجتها، وسماحتها وفصاحتها وجمال وقعها، مع القوة والجزالة والرصانة، متأثرة في ذلك بالقرآن الكريم، متتبعة سبيل السلف الطيبين، وقد أعانها هذا مجافاة أهلها البداوة، وأخذهم بنصيب من حياة الحضارة ـ واللغة كائن حي يؤثر فيما حوله، ويتأثر بما حوله وله كسائر الكائنات الحية، وقد تركت الحضارة آثارها في المظاهر المختلفة لحياة هؤلاء العرب بذلك العصر، كما نرى أحكام نسج العبارة، وقوة التآخي بين ألفاظها وملاءمتها لما تدل عليه من معنى، ودقة تعبيرها عنه، وتصويرها إياه، في عنفه وشدته ولينه ورقه، وقدرتها على المبالغة فيه عند الاقتضاء، وكم رأينا فيما عرضنا من خطب كيف يكون حسن انتظام الألفاظ والجمل الزاجرة الضخمة العنيفة القوية الأداء، المعبرة أدق تعبير عن المعاني المرغوبة في جودة من الصياغة، وعناية واضحة بحسن الوصف، وفي هذه الخطب ظاهرة واضحة هي انتقاء الألفاظ والجمل انتقاءً يتمثل فيه قدرتها على الإفصاح عن شخصية الخطيب والدلالة على الحال القائمة ولذلك لا نجد في أكثر خطب الشيعة عنف الألفاظ وضخامة العبارة، ولا روعة التهويل في التصوير التي تغلب في خطابة الأمويين وتدل على بطش السلطان وقهر الطغيان، ونجد في خطب الخوارج العبارات المفصحة عن شدة إيمانهم واستماتتهم في الدفاع عن دعوتهم، ومن هنا ندرك أن قوة

---

[1] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١ ص٢٠١.

الخطبة[1] ترجع إلى أسباب، أهمها شخصية الخطيب، وما يستدعيه المقام والاستمداد من سطوة السلطان أو قوة الإيمان، ومن الظواهر الواضحة في صورة الخطابة اللفظية أخذها من كلمات القرآن وعباراته، فليست بذلك رداء لا يبلى من الحسن والطلاوة والجدة، واتجاهاتها إلى جمال تقسيم الكلام، فأصابت به غاية محمودة واما في المضمون والمعنى يتمثل في خطابة هذا العصر وضوح المعاني وقربها ودقتها وقوتها وجدتها واتساعها وعمقها وترتيبها، وقد كان لها من الأحداث العظيمة المختلفة المتلاحقة، والدعوات الكثيرة المتعارضة، ودواعي الحضارة الجديدة والظواهر الاجتماعية الحديثة التي زخر بها العصر، وافسح لها فيه المجال زاد وفير من المعاني الجلية القوية الجديدة المتجددة، يأخذ منها الخطباء، فشققوا تلك المعاني ورتبوها، وتوسعوا فيها، واعانهم على هذا ما لمسناه بخطابتهم ما رصانة الحس، وصدق الشعور، وحرارة العاطفة، وقوة الإيمان، والحماسة للعقيدة، فجاءت صادقة، جارية على السليقة والطبع. وكان في استجابة الألفاظ لهذه المعاني تكريم لها وصيانة، فبرزت في أحسن معارضها، وحليت في أجمل ثيابها، مما ضمن لها التوفيق في إصابة مواضعها وغايتها، واما الأسلوب فقد كان مجليا لخصائص كثيرة من أهمها القوة ووضوح الدلالة والمقدرة البيانية الفائقة، والافتتان في القول اللذان اتاحا أن يرتجل خطبة طويلة خالية من الراء وكذلك قدرة الخطابة على تصوير حياة العصر حتى لتقرأ فيها تاريخه واضحاً صادقاً غير مدخول بل صارت مصدراً لذلك لتاريخ.

وترى متانة تأليف الخطبة وحسن تقسيمها إلى عناصرها وترتيب أجزائها وأفكارها ترتيباً منطقياً على نحو ما كان عند بعض الخطباء في العصر الأموي. وكذلك تبدو العناية بالتجويد والتنميق والتأنق في صياغة لخطب واضحة إلى ما فيها من ضروب المهارة البيانية وبراعة العرض، والقصد إلى ابراز المعاني في صورة

---

[1] ينظر د. محمد طاهر دروش، الخطابة في صدر الإسلام ص٤٢٩.

فنية باهرة. وكذلك من خصائص الخطابة في هذا العصر زول الفوارق الأسلوبية بين الخطابة أي بين خطابة البدو وغيرهم، فلم نعد نرى في خطابة الوفود ذلك الغريب النافر من الألفاظ ولا تلك الجفوة الخشنة في الخطاب عند المقارنة بين خطب الوفود على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والوفود على خلفاء بني أمية في هذا العصر، ولكن الصنعة البيانية قد ظهرت في محيط الخطابة بما يبدو فيها من رعاية الإيقاع الصوتي، والقصد إلى التوافق الموسيقي والإكثار من التكرار والترادف، كما نرى زيادة اعتماد خطباء هذا العصر على التشبيهات والاستعارات العجيبة وفشا ذلك فيها وعنوا عناية واضحة برسم الصور البيانية القوية وعرض الرسوم المتحركة وتشخيص المعاني، وكذلك نجد أن الخطباء في هذا العصر قد اخذوا من القرآن اقتباساً وتضميناً واستشهاداً وأكثروا في ذلك في خطبهم كما نجد انهم احسنوا التمثل بالشعر واكثروا منه، قصد المبالغة والتأثير ولان الشعر كان قد استعاد في هذا العصر مكانته واسترد دولته والناس إذ ذاك بين خطيب وشاعر وراوية، وكذلك لجأ الخطباء إلى ضرب الأمثال بخطبهم وقد خطب عبد الملك بالمدينة خطبة طويلة بناها على مثل من الأمثال السائرة واستخدمتها كذلك أم كلثوم[1] بنت علي ابن أبي طالب رضي الله عنها وعن أبيها في خطابتها، وكان العصر الديني أي عصر النبوة والخلافة الراشدة قد أهملها وأطرحها. وكان للخطابة في هذا العصر عناية بحسن المقاطع والازدواج وتساوي الفواصل والسجع ورعاية للإيقاع الموسيقي وتقصير الجمل يهدف ذلك كله إلى قوة الوقع وعمق التأثير كما يرمي إلى يسر حفظه وروايته، ولذلك نراه يكثر في الخطب التي ترسم سياسة عامة. وكذلك غلب السجع

---

[1] أم كلثوم بنت على بن أبى طالب: من فواصل نساء عصرها،ولدت قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه = وسلم وخطبها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكانت صغيرة وتزوجها فى ذي القعدة سنة ١٧هـ وولدت له زيد ورقية ثم تزوجت عون بن جعفر بعد وفاة عمر رضي الله عنه ولها رائعة فى مقتل أخيها الشهيد الحسين عليه السلام فى أهل الكوفة سنة ٦١هـ (ينظر : ابن سعد، الطبقات الكبرى م٨ ص ٤٦٣، عمر رضا كحالة ، اعلام للنساء جـ٤ ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦) .

وبدا فيه الصنعة والافتعال وشابه به سجع الكهان والمتنبئين بما فيه من إبهام وأغراب وأقسام. ونجد في خطب. هذا العصر الإيجاز اللائق بصاحب السلطان والإطناب في موضع الإطناب، وعليه فان الخصائص الفنية للخطابة في العصر السياسي الأموي تشمل الإعداد وذلك تنم خطب كثيرة عن العناية بإعدادها والتأني في صوغها، والتدبر في ترتيب أجزائها، وتنسيق أفكارها والتأنق في أسلوبها. وقد عرف شيء من هذا قبل العصر الأموي فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه تحدث عن اجتماع يوم السقيفة بقوله (كنت قد زَوّرْت- أعددت- كلاماً لأقوله، فقال لي أبو بكر: على رِسْلك، وتكلم هو: فلم يترك شيئاً ما كنت أريد أن أقوله)[1] وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشعر بان لخطبة النكاح بخاصة مشقة، يقول (ما يتصعدني كلام كما تتَصعدُ في خطبة النكاح)[2].

وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه صعد المنبر، فأرتج[3] عليه فقال أن ابا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً، وانتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب، ومعنى هذا أن الشيخين كانا يعدان خطبهما وان عثمان رضي الله عنه لم يكن قد استعدّ لذلك. وما زال الإعداد طابع كثير من الخطب في العصر الأموي فقد روي أن الخوارج طلبوا من عبد الله بن وهب الراسبي[4] يوم ولوه رياستهم أن

---

[1] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ ٣ ص٢٠٠.

[2] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١ ص١١٧ و١٢٤. تصعده الأمر أي شقّ عليه وقد ذكر الجاحظ انه يعرض للخطيب في خطب الاملاك من الحصر اكثر مما يعرض لصاحب المنبر. ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١ ص١٣٤.

[3] ينظر: إلجاحظ البيان والتبيين جـ ١ ص٣٤٥.

[4] عبد الله بن وهب الراسبي: هو عبد الله بن وهب الراسبي من الأزد من أئمة الاباضية كان ذا علم ورأي وفصاحة أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وشهد فتوح العراق ثم كان مع علي عليه السلام في حروبه وكان ممن انكر التحكيم واجتمع مع الخوارج بالنهروان (بين بغداد وواسط) قتل في هذه الموقعة سنة ٣٨هـ ٦٥٨م. ينظر: المبرد، أبو العباس محمد بن زياد الأزدي (ت٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) الكامل في اللغة والأدب نشر: زكي مبارك وأحمد محمد شاكر، مطبوعات البابي الحلبي، (مصر، ١٩٣٦) جـ٢، ص١١٩. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٥م) الملل والنحل، صححه وعلق عليه: الأستاذ الشيخ أحمد فهمي محمد ط١، (الجيزة، ١٩٤٨م)، جـ١، ص١١٧. الزركلي، الاعلام، جـ٤ ص٢٨٨، عبد الحميد، عرفان، (الدكتور) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية المطبعة الوطنية، (بغداد، ١٩٧٧م) ص٩٦.

يخطب فيهم فقال (وما أنا والرأيُ الفطين والكلام القضيب)[1] وتواردت الأخبار بـان واصل بن عطاء كان يخطب فيتجنب الراء في كلامه لانه كان الثغ، فهل كان يتجنبها دائماً بغير إعداد وتفكير وتدبر؟

وقيل لعبد الملك بن مروان: تعجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين فقال: وكيـف لا يَعْجل عليّ وأنا أعرض عقلي عَلَى الناس في كل جمعة مرة أو مـرتين[2]؟ يريـد خطبة الجمعة وغيرها ما يعرض الأمور. وقال الكميت بن زيد[3] وكان خطيبـاً- إن للخطبة صعداء وهي على ذي اللب أرمي ويعلق الجاحظ على هـذا بقولـه "ولـم أر الكميت أفصح عن هذا المعنى، ولا تخلص إلى خاصته، وانما يجتزئ على الخطبـة الغيرّ الجاهل الماضي الذي لا يثنيه شيء، أو المطبـوع الحـاذق الواثـق بغزارتـه واقتداره"[4]. وان آثار الإعداد الواضحة في كثير من خطب هـذا العصـر كخطـب الحجاج وزياد وعبد الملك وابي حمزة الخارجي لان هذه الخطب موحدة الموضـوع مرتبة الأفكار، جيدة الأسلوب، متوازنة الجمل، معتمدة على ألوان من الخيـال، بهـا سجع مقصود لكنه غير مستكره، ولا متكلف وبعضها يشـتمل علـى مقدمـة تمهـد للموضوع يتخذها الخطيب مجازاً إلى الموضـوع نفسـه، ولقـد يمـزج الخطيـب بالموضوع تدليله على رأيه، وتفنيده لدعوى خصمه ثم يختم الخطبة بعبارات يلخـص بها موضوعه أو يستميل السامعين ويستثيرهم كما نجد في خطبة[5] الحجاج بالكوفـة

---

[1] ينظر:الجاحظ البيان والتبيين جـ١ ص٢٠٥.

[2] ينظر: م . ن ، جـ١ ص١٣٥.

[3] الكميت بن زيد: هو الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي أبو المستهل شاعر الهاشميين من اهـل الكوفـة وكان منحازاً إلى بني هاشم في العصر الأموي كان خطيب بني أسد وفقيه الشيعة. (ينظر: أبـو فـرج الاصفهاني، الأغاني، جـ١٥ ص١٠٨ البغدادي، عبد القادر بن عمر، (ت١٠٩٣هـ/ ١٦٨٣م)، خزانة الأدب ولب= =لباب لسان العرب تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ط١، مطبعة بولاق، (القـاهرة، ١٢٩٩هـ) جـ١، ص ص٦٩-٧٠ و٨٦.

[4] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين جـ١ ص١٣٤.

[5] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٧ ص٢١٠.

التي سنكتبها كنموذج لخطب هذا العصر السياسية وكذلك خطبة[1] أبي حمزة الخارجي في المدينة التي سنوردها في هذا البحث وعليه لم يكن من المصادفة أن تجيء هذه المراحل، بل هي ثمرة الإعداد والاستعداد.

(٢) **الافتتاح** : أما افتتاح الخطب فقد كان صورة من افتتاحها في عصر النبوة في الأعم الأكثر (أ) فأكثرها مبدوء بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله الكريم وهذه هي السمة الغالبة، حتى أنهم سموا الخطبة التي لا تبدأ بالحمد بتراء.

(ب) وبعضها مبدوء بالتهديد والوعيد، لتنبئ بغضب الخطيب وترهب السامعين بشديد عقابه كقول الحجاج (أيها الناس من أعياه داؤه، فعندي دواؤه، ومن استطال أجله، فعلي أن أعَجّله، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومن استطال ماضي عمره، قصرت عليه باقيه) [2]، (جـ) وبعض الخطب[3] مبدوء بالشتم والتوبيخ، لان المقام مقام تقريع وتأنيب كقول زياد (اما بعد، فان الجهالة والجهلاء والضلالة العمياء، والفجور المرقد لأهله النار الباقي عليهم سعيرها، ما يأت سفهاؤكم، من الأمور العظام ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى منها الكبير، كأن لم تسمعوا بآي الله ولم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته).

(د) وقد تبدأ[4] بشعر خشن ينبئ عن صرامة وغلظة، كما فعل الحجاج في بدء خطبته بالكوفة.

---

[1] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ٢ ص١٢. أبو الفرج الاصفهاني، الأغاني، جـ٢ ص١٠٤. ابن ابي الحديد، نهج البلاغة جـ١ ص٤٥٩.

[2] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا جـ١ ص٢٢٠.

[3] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٦ ص١٢٤.

[4] ينظر: م . ن، جـ٧ ص٢١٠.

(هـ) وقد يبدأ الخطيب في هذا العصر بالموضوع مباشرة كما فعل سيدنا الحسين في خطبته لتي رد بها على معاوية إذ نال من والده عليّ عليه السلام ومن أخيه الحسن عليه السلام فرد عليه الحسن عليه السلام بقوله[1] (أيها الذاكر علياً، أنا الحسن، وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وامي فاطمة، وامك هنـد، وجدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدك عتبة[2] بن ربيعة، وجدتي خديجة وجدتك قتيلة).

(٣) العنف والتهديد

تزخر الخطابة السياسية في العصر الأموي بشن الحملات على الخصوم والتهجم عليهم وسبّهم، واتهامهم بالضلال والكفر والفجور وتوعدّهم بعقاب الله وتهديدهم بالثورة أو الانتقام، والفكرة الشائعة في كثير من الكتب التي أرخت للأدب أن هذه الظاهرة مقصورة على خطباء الحزب الأموي الحاكم، إذ انهم اعتمدوا على قوارص الكلم في إرهاب الثائرين، وزجر من تسول له نفسه أن يحدث فتنة أو يتمرد على الحكام. لكن الحقيقة أن في خطب الأحزاب الأخرى المعارضة للأمويين فيها أيضا سباً وتهديداً فمن ذلك في خطب الأمويين قول معاوية بالمدينة بعد أن تولى

---

[1] ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ٤ ص١٦.

[2] عتبة بن ربيعة: هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أبو الوليد كبير قريش واحد ساداتها في الجاهلية، خطيباً نافذ القول نشأ يتيماً في حجر حرب بن أمية أصلح بين قبيلة هوازن وكنانة في حرب الفجار قتل في معركة بدر الكبرى سنة ٢هـ/ ٦٢٤م (ينظر: المصعب الزبيري، المصعب بن عبد الله الزبيري بن المصعب، (ت٢٣٦هـ/ ٨٥٠) نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفينسال، ط٢، ١٩٧٦م، ص١٢٥ و١٥٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة جـ١ ص ص١٢٢-١٢٤).

الخلافة (والله ما وليتها بمحبة علمتُها منكم، ولا قسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة) [1].

وقول عتبة بن أبي سفيان[2] بمصر (يا حاملي الأم أنوف رُكِّبَتْ بين أعيُن والله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فان حسمت ادواءكم، وإلا فان السيف من ورائكم) [3].

ومنه في خطب الشيعة قول الحسن في رده على معاوية بسمع منه (لعن الله أخملنا ذكراً، وألا منا حسباً، وشرنا قديماً وحديثاً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً) [4].

ومنه في خطب الخوارج قول أبي حمزة في وصف سياسة معاوية ويزيد (ثم ولي معاوية لعين رسول الله وابن لعينه، وجِلفٌ من الأعراب وبقية من الأحزاب- ثم ولي بعده يزيد، يزيد الخمور، ويزيد الصقور، ويزيد الفهود، ويزيد الصّيود الفاسق في بطنه- فخالف القرآن، وعمل بما يشتهيه) [5] ومنه ما ورد في خطب الزبيريين كقول عبد الله بن الزبير (أن أهل العراق غُدُر فُجرُ إلا قليلاً، وان أهل الكوفة شرار أهل العراق) وقول عبد الله بن مطيع والي ابن الزبير على الكوفة (والله لاوقعَنَّ بالسقيم العاصي، ولأقيمن دَرْء الاصْعَر المرتاب) [6].

---

[1] ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد جـ٢ ص١٤٠.

[2] عتبة بن أبي سفيان: هو عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس امير مصر وليها من قبل أخيه معاوية توفي في الاسكندرية في مصر سنة ٤٤هـ/٦٦٤م وقال الاصمعي: الخطباء من بني امية عتبة بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان. ينظر: المصعب الزبيري، نسب قريش ص ص١٥٢-١٥٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة جـ١، ص ص١٢٢-١٢٤.

[3] ينظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب جـ١ ص١٧.

[4] ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ٤ ص٥٦.

[5] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٢ ص٥٦. ابن الجوزي، تاريخ الملوك والأمم، جـ١٠، ص٦٥.

[6] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٦ ص٢٧٣.

(٤) التخييل والتصوير

اتسمت الخطابة في العصر الأموي بمشابهتها الشعر في إبراز الأفكار وتوضيحا وتجسيمها في قولب من التخيل ومن التضاد وهي (أ) كالتشبيه في قول أبي حمزة الخارجي (وإذا قرأ أحدهم بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه) [١].

وفي قول زياد (نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان فوجدتهم كالاضاحي، في كل عيد يذبحون).

وفي قول عبد الله بن الزبير (أسلمه الطّغامُ[٢]، الصُمّ الآذان، إسلام النعم المخطمة).

(ب) ومثل الاستعارة موجود في قول الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (وان نقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر)[٣].

وقول الحجاج (أني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وأني لصاحبها).

(جـ) ومثل الكناية واضح في قول أبي حمزة الخارجي في وصف أصحابه (شباب تقيلة عن الباطل أرجلهم، باعوا انفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً، أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وصباهم، وفي قول الحسين بن علي أبن أبي طالب عليه السلام (ليكن كل رجل منكم حِلْساً من أحلاس بيته)[٤].

(د) وقد يلجأ الخطيب إلى ضرب من الإثارة، إذ يعرض صورتين متضادتين، ليست إحداهما جزاء على الأخرى أو يعقد صلة حتمية بين عملين أحدهما يرغب فيه جميع الناس والآخر يخشاه الناس، من الضرب الأول قول أبي

---

[١] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٢ ص٥٦.

[٢] الطغام بمعنى الاوغاد، المخطمة أي التي في أنوفها أحزمة تقاد بها. ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص١٨١.

[٣] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٦ ص٢٢٩.

[٤] ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ٤ ص١٤.

حمزة الخارجي (فيكم من عَين في منقار طائر، طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من بد قد أبينَتْ عن ساعدها، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً، وكم من وجه رقيق، وجبين عتيق، قد فُلِق بعمد الحديد).

فهو يستثير السامعين على بني أمية، ويستدر عطفهم ومسراتهم على أنصاره من العباد الشجعان الذين قتلهم بنو أمية ومزقوا أشلاءهم بهذا التصوير الذي يرسم لهم عيوناً في مناقير الطيور، كانت كثيرة البكاء من خشية الله، وايدياً مقطوعة مفصولة عن سواعدها، طالما اتكأ عليها أصحابها في الصلاة.

ومن الضرب الثاني قول زياد: (فمن غرّق قوماً غرقناه، ومن حرّق على قوم حرّقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه) ذلك أن بعض الذين يشكو منهم زياد يحبون أن يغرقوا غيرهم ويحرقوا دورهم ويسرقوهم أحياء وأمواتاً، ولكن الناس جميعاً يخافون هذا العقاب الرادع الذي جعله زياد من جنس الجريمة، ليكون ملائماً لها.

(هـ) وكذلك يجيء الطباق والمقابلة، فيزداد المعنى وضوحاً وتزداد الصورة جلاء ورسوخاً، مثل قول عتبة بن أبي سفيان (ولّينا هذا الموضع الذي يضاعف الله فيه للمحسن الأجر وعلى المسيء الوِزْرَ)[1] وقول زياد (والله لآخذنّ الوليّ بالمولى والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمُدبر، والصحيح منكم بالسقيم، رُبّ مبئس بقدومنا سَيُسرّ، ومسرور بقدومنا سيبتئس) وقول الحسن ا بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما (ألا أن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة)[2] وقوله عليه السلام (لأن تُذلوا وتُعانوا أحبُّ اليَّ من أن تَعِرّوا وتُقتلوا).

---

[1] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ٣، ص٢٣٠.

[2] ينظر: ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ/ ٨٧٧م) الإمامة والسياسة علق عليه ووضع حواشيه: خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية (بيروت، ١٩٩٧م) جـ١، ص١٢١.

وقول عبد الله بن الزبير (لم يعز الله مَنْ كان الباطل معه وان كان معه الأنـام طُرّا، ولم يُذل من كان الحق معه، وان كان مفرداً ضعيفاً، فأن تُقبل الدنيا علـيّ لـم آخذها أخذ الأشِر البَطِر، وان تُدْبر عني لم أبك عليها بكاء الخرق المهين)[1].

(٥) أما التعبير فانه يتسم بعدة خصائص هي :

(أ) قوة العبارة وجزالتها، لأنها تعبير عن مشاعر مهتاجة ونفوس ثائرة حانقة كقول زياد (وايم الله أن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرْعاي).

وقول الحجاج (أن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، فعَجَم عيدانها، فوجـدني أمرّها عوداً، وأصلبها مَكْسِراً، فرماكم بي، لأنكـم طالمـا أوْضـعْتم فـي الفتنـة، واضطجعتم في مراقد الضلال) وقول أبي حمزة (شباب والله مكتهلون فـي شـبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء[2] عبادة، وأطلاح سهر، باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً).

(ب) قصر الجمل ليشتد وقعها، ويتلاحق تأثيرها من ذلك قول عبد الملك بن مـروان (أن الحرب صعبة مرة، وان السلم أمن ومسرة).

(جـ) العناية بالوقع والرنين، سواء أجاء عن طريق سجع غير مستكره أم عن طريق الازدواج، أم من تقسيم العبارة إلى جمل متوازنة القدر والطـول، نجـد هـذا واضحاً في قول الحجاج بن يوسف الثقفي (إنّ للشيطان ضَيْقاً، وإن للسـلطان سيفاً، فمن سقِمتْ سريرته، صحّت عقوبته، ومن وضعه ذنبه رفعه صَلَبه، ومن لم تسعه العافية، لم تَضِق عنه الهلكة)[3] وفي قول الحسين بن علي عليه السلام

---

[1] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص١٩٠.

[2] انضاء واطلاح يعني مهزولون من التعبد،ينظر :ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح:

[3] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١ ص٢٢٠.

(أن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء)[1].

(١) يغلب على خطب العصر الأموي كلها الإيجاز المعتدل، ويقل فيها التوسط القريب من الطول، وتندر فيها الخطب المسهبة المطولة، وهي في هذه الظاهرة تعتبر امتداد للخطابة في عصر النبوة والخلافة الراشدة.

لقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب خطبة من صلاة العصر إلى أن جنحت الشمس للمغيب، ولكن خطبهُ القصار كانت أكثر. وكذلك تقل الخطب الطوال في هذا العصر. ولعل أطول الخطب السياسية التي وصلت إلينا خطبة أبي حمزة الخارجي التي خطبها بالمدينة دفاعاً عن الشباب من حزبه، وهي في نحو تسعين سطراً، وتقل أيضاً الخطب الموجزة المتناهية في الإيجاز، كخطبة الإمام الحسن عليه السلام في رده على معاوية لما نال منه ومن أبيه بالكوفة فهي في أربعة أسطر[2] فقط وخطبة المختار بن أبي عبيد[3] وهو يشيع إبراهيم بن الأشتر[4] لقتال ابن زياد فهي في سطرين[5]، وخطبة عبد الله بن الزبير بعد خطبته الأولى لما قتل

---

[1] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٦ ص٢٢٩.

[2] ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، جـ١، ص١٦.

[3] المختار بن أبي عبيد الثقفي: هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أبو أسحق ولد سنة ١هـ من الزعماء الثائرين على بني أمية من أهل الطائف ثم انتقل إلى المدينة المنورة وهو من انصار الحسين عليه السلام حيث قتل شمر بن ذي الجوشن وكذلك خولى بن يزيد وعمر بن سعد بن أبي وقاص وقتل عبيد الله بن زياد توفي سنة ٦٧هـ/ ٦٨٧م ينظر الطبري، تاريخ لرسل والملوك جـ٧ ص١٤٦، ابن الاثير، الكامل جـ٤ ص ص٨٢- ١٠٨.

[4] إبراهيم بن الأشتر: هو إبراهيم بن مالك الأشتر بن الحارث النخعي قائد شجاع من أصحاب مصعب بن الزبير شهد معه الوقائع وقتل في حرب عبد الملك بن مروان ودفن بقرب سامراء سنة ٧١هـ/ ٦٩٠م وهو من قبيلة نخع باليمن. ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي. جـ٢، ص١٨٠، الزركلي، الاعلام جـ١ ص٥٣.

[5] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ٢ ص٤٧.

أخوه مصعب بن الزبير[1] فهي في سطرين، وخطبته وقد بلغه قتل عمرو بن الأشدق[2] فهي في سطر واحد[3].

أما الكثرة الغالبة فهي من النوع المتوسط بين الإيجاز والطول.

(٦) التأثر بالقرآن الكريم، اذ تأثر كثير من الخطباء في هذا العصر بالقرآن الكريم، إذْ عُني كثير من المسلمين بحفظه وبتفسيره، واشتهر في كل مدينة كبيرة جماعة من المفسرين والمحدثين والفقهاء وقد ظهر التأثر بالقرآن الكريم في مظهرين هما:

(١) الاقتباس: كثر الاقتباس من القرآن، والمهارة في وضع الآيات بالمواضع الملائمة لها من الخطبة حتى ليحسب الذي لا يحفظ القرآن أن الكلام كله للخطيب، وانما عمد الخطباء إلى الاقتباس لأنهم يتذوقون بلاغة القرآن، فيجدون في الآيات التي يقتبسونها تعبيراً صادقاً عما يريدون أن يقولوا، ثم لأنهم يعرفون استجابة سامعيهم للبلاغة، فيضيفون إلى بلاغتهم هم والى تأثيرهم الخطابي أعظم

---

[1] مصعب بن الزبير: هو مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، أبو عبد الله أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام ولاه أخوه عبد الله بن الزبير البصرة سنة ٦٧هـ ثم اصبح والياً على الكوفة ثم قتل على يد زائدة بن قيس السعدي وكان ذلك في سنة ٧١هـ/ ٦٩٠م. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، م٥، ص١٣٥. (الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (٧٤٨هـ ١٣٤٨م) سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الارنؤوط ومحمد نعيم، مؤسسة الرسالة، (بيروت، ١٩٨٢م) جـ٣، ص١٠٨.

[2] عمرو بن الأشدق: هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي، القرشي أمير، من الخطباء البلغاء كان والي مكة والمدينة لمعاوية وابنة يزيد قتل من قبل عبد الملك بن مروان سنة ٧٠هـ/ ٦٩٠م وسمي بالأشدق لفصاحته ينظر ابن الاثير، الكامل في التاريخ جـ٤ ص١١٦. الكتبي، فوات الوفيات جـ٢ ص١١٨. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب جـ٨ ص٣٧.

[3] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ٢ ص٤٧.

ذخيرة من البلاغة، وسلطان الدين، يقول الجاحظ (وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آيٌ من القرآن، فان ذلك مما يورث الكلام إليها والوقار والرقة وسلس الموقع). ثم روي عن عمران بن حطان قوله: إن أول خطبة[1] خطبها عند زياد أو عند ابن زياد- فأعجب بها الناس، وشهدها أبي وعمي، ثم أني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطبُ العرب لو كان من خطبته شيء من القرآن).

على أن الاقتباس من القرآن كان الطابع الغلاب في الخطب الدينية والوعظية ولهذا أسموا خطبة الوعظ أو الدين إذا خلت من القرآن شَوْهاء، اما الخطب السياسية في هذا العصر فقد غلب فيها الاستشهاد بالشعر. والأمثلة على الاقتباس كثيرة للخطباء في هذه الفترة نذكر منها قول أبي حمزة في تزكية القتلى من أصحابه (فطوبى لهم وحسن مآب) من قوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحُسنُ مآب)[2] وقول الحسين بن علي عليه السلام (فَمن نكث فإنما ينكث على نفسه)[3] فهي كلها من القرآن.

وقول عبد الله بن الزبير (فسوف يلقون غيّا)[4] فهذه آية قرآنية وقول محمد[5]

---

[1] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١ ص١١٨.

[2] سورة الرعد آية رقم (٢٩).

[3] سورة الفتح آية رقم (١٠).

[4] سور مريم آية رقم (٥٩).

[5] محمد بن الحنفية: هو محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي أبو القاسم أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام وامه خولة بنت جعفر الحنفية وفرقة الكيسية تزعم انه لم يمت وتدعو إلى إمامته توفي في المدينة وقيل هرب من ابن الزبير إلى الطائف فمات هناك سنة ٨١هـ/ ٧٠٠م. ينظر: ابن سعد الطبقات الكبرى م٥ ص٦٦، الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٧ ص٩٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ١ ص٤٤٩.

بن الحنفية (وكان أمر الله مفعولاً وكان أمر الله قدراً مقدوراً)[1] فهاتان آيتان قرآنيتان.

وقول الحجاج بن يوسف الثقفي فإنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)[2] فهذا قرآن كريم.

وربما جاءت الخطبة كلها من القرآن الكريم كخطبة مصعب بن الزبير حينما بعثه أخوه عبد الله والياً على البصرة فقد حمد الله واثنى عليه ثم قال ﴿بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين، نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعفُ طائفة منهم يُذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين﴾[3] وأشار بيده إلى الشام)[4].

﴿ونريد أن نمُنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾[5] (وأشار بيده نحو الحجاز).

﴿ونُمكنَّ لهم في الأرض ونُريَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يَحذرون) [6] (وأشار بيده نحو العراق﴾[7].

فهو في هذه الخطبة اعتمد على القرآن وحده، ويجيد اختيار الآيات المعبرة عما في نفسه. فهو في هذه الآيات الكريمة شبه بني أمية في الطغيان والعدوان على حق

---

[1] سورة الأحزاب آية رقم (٣٧).

[2] سورة النحل آية رقم ١١٢.

[3] سورة القصص الآيات ١- ٤.

[4] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٧ ص١٤٦.

[5] سورة القصص آية رقم (٥).

[6] سورة القصص آية رقم (٦).

[7] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٧ ص١٤٦.

الحياة، وتكهّنَ بأن الزبير بين الذين ينكل بهم بنو أمية وهم الذين سينزعون الملك منهم ويرثونهم، وبأن العراق سيكون مقر ملكهم وبأن بني أمية سيصطلون من نار الزبيريين ما كانوا يخشونه. وأقول إن كثرة الاستشهاد بآيات القرآن الكريم هو كثرة الحفظة للقرآن الكريم في هذا العصر وبروز مفسرين كثيرين أيضا في هذه الفترة، وكان هدف المسلم في هذا العصر هو حفظ القرآن والاستشهاد به في كلامه اليومي وحديثه العام، وانبرى خطباء هذا العصر يستمدون منه المعاني العظيمة التي يستقوها من آياته العظيمة ليؤكدوا انهم أحقّ من بن أمية في الخلافة، ولذلك كان بعض الخطباء يستمدون من القرآن الكريم بعض المعاني يجرونها على ألسنتهم عامدين ليفخموا بها أقوالهم ويجتذبوا نفوس سامعيهم أو غير عامدين أن يقتبسوها، وانما جرت على ألسنتهم لانهم كما قلت حفاظ للقرآن الكريم قد فهموا ما حفظوا، وتأثروا به، فاستقر في نفوسهم.

من ذلك قول الإمام السيد الحسن عليه السلام في رده على الذين استنكروا صلحه مع معاوية (إنّ الله لا مُعقّب لحكمه، لا رادَّ لقضائه)[1].

ففي هذه الجملة يلمح معنى قوله تعالى ﴿والله يحكمُ لا مُعقبَ لحكمه وهو سريع الحساب﴾[2].

وقوله تعالى ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾[3].

وهو يقول في الخطبة نفسها (سألنا الله ألا يكلنا إلى أنفسنا) وهذه الجملة تذكرنا بقوله تعالى ﴿ربنا لا تؤاخذنا أن نسينا أو اخطأنا ربنا ولا تحمل علينا أصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[4].

---

[1] ينظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، جـ١ ص١٢١.

[2] سورة الرعد آية رقم (٢).

[3] سورة الأنفال آية رقم (٤٢).

[4] سورة البقرة من الآية رقم (٢٨٦).

ومن قول أبي حمزة الخارجي في وصف أصحابه (باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً) فإن قوله هذا يذكرنا بقوله تعالى ﴿ومن الناس من يَشْري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾[1] وبقوله تعالى ﴿ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يُرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾[2].

ومنه قول عبد الله بن الزبير في رثاء الحسين عليه السلام (أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه، كثيراً بالنهار صيامه) فإنه قريب من قوله تعالى ﴿يا أيها المزّمل قم الليل إلا قليلاً﴾[3].

فالملاحظ في مسألة الاقتباس من القرآن الكريم والتأثر بمعانيه لخطباء هذه الفترة أن هناك ظاهرتين الظاهرة الأولى أن خطباء هذا العصر من الخوارج والشيعة[4] والزبيريين يكثر اقتباسهم من القرآن الكريم ويقل في خطب الحزب الأموي، ما عدا الحجاج لانه كان يحفظ القرآن وكان يعلمه فهل كان سبب ذلك أن الحزب الأموي من خلفاء وولاة أقل حفظاً للقرآن كله أو بعضه من الشيعة والخوارج والزبيريين؟ وكان سبب ذلك أن بني أمية لم يقيموا ملكهم على أساس ديني يعتمدون عليه في دعوى استحقاقهم للخلافة، على أن الأحزاب الأخرى أقامت دعواها على أسس دينية؟ وأنا أرجح السبب الثاني في أن بني أمية لم يقيموا ملكهم ابتداعاً على

---

[1] سورة البقرة آية رقم (٢٠٧).

[2] سورة آل عمران آية رقم (١٦٩)، (١٧٠).

[3] سورة المزمل من الآية رقم (١)، (٢).

[4] الشيعة: الشيعة لغة: شيعة الرجل اتباعه وانصاره قال تعالى "فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه" سورة القصص من آية (١٥) واصطلاحاً هو الاعتقاد بان علياً وذريته رض الله عنهم أجمعين هم أحق بالخلافة. (ينظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكر بن علي الانصاري (ت٧١١هـ/ ١٣١١م). لسان العرب، تحقيق: يوسف خياط ونديم مرعي، طبع دار لسان العرب، (بيروت ١٩٦٨م) جـ٨ ص٨٨٨ مادة (شيع). ابن حزم، أبو محمد علي بن محمد (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) الفصل والملل والنحل، جـ٢، ص١١٣.

أساس ديني أو على أساس عقائدي إسلامي بل أخذوا الخلافة عنوة وحيلة وسرقوها من أصحابها الشرعيين وبدون استحقاق لهذه الخلافة، واما الظاهرة الثانية عند دراستنا للخطابة السياسية في هذا العصر فهي أن الاقتباس من القرآن الكريم كان في العصر الأموي اكثر من عصر النبوة والخلافة الراشدة فلماذا؟ لعل من أسباب ذلك أن القرآن العظيمُ لم يكن في عصر النبوة والخلافة الراشدة يحفظ أو قد تم حفظه إلا من نفر قليل جداً، ولكن نجد أن الفترة الزمنية من عصر النبوة والخلافة الراشدة إلى العصر الأموي جعلت الحفاظ يكثرون وكذلك يكثر المفسرون والمحدثون والفقهاء، وظهرت طبقة المفسرين والقراء والحفظة والفقهاء، ولأن الرجل في عصر النبوة كان يحفظ الآيات من اجل أن يتلوها في الصلاة وقل في هذا العصر من حفظ سورة أو عدة سور طوال يدل على هذا قول أنس بن مالك[1]: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ في أعيننا. اما في العصر الأموي فقد انتشر القرآن وكثر حفاظه إذ أن عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه كان قد كتب المصاحف ووزعها في الأمصار وجاء بنو أمية فنشروا منها نسخاً كثيرة فسهل على المسلمين أن يقرأوا وان يحفظوا، ثم هناك نقطة أخرى هي أن الجهاد شغل المسلمين في عصر النبوة والخلافة الراشدة والفتوحات في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت على أوسعها ولكن في العصر الأموي هدأت الفتوح، وفرغ كثير من المسلمين لتلقي العلم، فكان ابن عباس بمكة وزيد بن ثابت[2] بالمدينة وغيرهما في الأمصار، ما

---

(1) أنس بن مالك: هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الانصاري أبو ثمامة أو أبو حمزة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه روى عنه البخاري ومسلم ٢٢٨٦ حديثا ولد بالمدينة سنة ١٠ ق هـ توفي في البصرة سنة ٩٣هـ/٧١٢م. (ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، م٧ ص١١ ابن عساكر، تهذيب ابن عساكر جـ٣ ص١٣٩.

(2) زيد بن ثابت: هو زيد بن ثابت بن الضحاك الانصاري الخزرجي أبو خارجه، صحابي ولد في المدينة المنورة سنة ١١ ق هـ/٦١١م وهو من كتاب الوحي وهاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم ويأخذ عنه ابن عباس ويقول العلم يؤتى ولا يأتي ومن الذين ساهموا في جمع القرآن وكتبه في يده في عهد عثمان رضي الله عنه له في الصحيحين (٩٢) حديثا توفي سنة ٤٥هـ/٧٥٣م.ينظر: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ ١٢١٠م) صفة الصفوة، دار الجيل، (بيروت، ١٩٩٢م)، جـ١، ص٢٩٤. الزركلي، الاعلام جـ٣ ص ص٩- ٩٦.

يعلمون الناس ويفسرون لهم القرآن الكريم، وشيء آخر هو أن المسلمين في عصر النبوة والخلافة الراشدة لم تكن الفرص متاحة لهم ليتشربوا معاني القرآن، ويمهروا في الاقتباس منه لان العهد قصر من ناحية ولان الدفاع عن النفس وعن العقيدة شغلهم من ناحية ثانية ولان تشرب القرآن يحتاج إلى وقت من ناحية ثالثة.

(٧) الاستشهاد بالشعر

في كثير من الخطب استشهاد بالشعر، أو اقتباس من عباراته ومعانيه. ومردّ هذا إلى أن الشعر كان من أصول الثقافة، وكان تأثره في نفوس الناس بعيد المدى وكانت هنالك عوامل عدة قد اجتمعت فنهضت بالشعر نهضة عظيمة فالحجاج مثلا استشهد في خطبته بالكوفة بشعر رُويشد العنبري وسُجيم الرّياحي، وعبد الله بن الزبير في خطبته بمكة والحجاج يحاصره بهذين البيتين.

أبي لابن سَلْمَي أنه غير خالدٍ
مُلاقي المنايا أيّ صَرْفٍ نَيمّ

فلستُ بمبتاع الحياة بسُبّة
ولا مُرتَقٍ من خشية الموت سُلّ

ثم استلم الحجر، فتكاثروا ليه، فحمل عليهم وهو يقول:

قد سنّ أصحابك ضرب الاعناق
وقامت الحرب بنا على ساق

فأصابه حجر، فصكّ جبينه، فأدماه، فقال[1]

---

[1] ينظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٧ ص٢٠٤. المسعودي، مروج الذهب جـ٥ ص١٢٤.

ولســـنا علـــى الأعقـــاب تـــدمى كلومنـــا
ولكن على أعقابنا تَقطر الدّما

وعبد الله بن مروان استشهد في خطبته[1] بعد قتل مصعب بشـــعر لقـــيس بـــن رفاعة ختم به خطبته.

(٨) القياس

نجد في بعض الخطب في العصر الأموي قياسا منطقيا معتمدا على الفطـــرة لا على الدرس والتعلم، لان خطباء العصر الأموي لم يكونوا قد اتصلوا بعلوم اليونـــان وفلسفتهم ومنطقهم حتى تبدو في خطبهم مظاهر المنطق المدروس.

وقد جاء في خطبة الحسين بن علي بن ابي طالب سلام الله عليه في أصـــحابه وفي جند عبد الله بن زياد الذين ذهبوا ليه ليقبضوا عليه بقيادة ابن يزيد التميمي قوله: (من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً بعهد الله مخالفـــاً لســـنة رســـول الله صلى الله عليه وسلم، يعمل في عباده بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قـــول كان حقاً على الله أن يُدخله مُدخله، ألا وان هؤلاء- بني أمية- قـــد لزمـــوا طاعـــة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ مَنْ غَيّرَ).

وهذه العبارة تؤدي إلى هذا القياس: بقوله عليه السلام: كل مـــن رأى ســـلطاناً جائراً مخالفاً لأحكام الله وسنة رسوله فلم يقاومه بفعل أو قول، فقد اســـتوجب عقـــاب الله.

وبنو أمية جائرون عصاة مارقون من الدين، فالثورة عليهم واجبـــة وأنـــا أول ثائر.

---

[1] ينظر: أبو علي القالي، الأمالي، جـــ١ ص١٣.

وجاء في خطبة زياد لما شرع يميل إلى معاوية قوله: (نظرت في أمور النـاس منذ مقتل عثمان، فوجدتهم كالأضاحي في كل عيد يذبحون، وقد أفنـى يـوم الجمـل وصفين ما ينيف على مائة، كان زياد والياً لعلي بفاس ثم استماله معاوية إليه الـف. كلهم يزعم انه طالبُ حق وتابع أمام، وعلى بصيرة من أمره، فان كان الأمـر هكـذا فالقاتل والمقتول في الجنة. كلا ليس كذلك، ولكن أشكل الأمر، والتبس علـى القـوم، وقد نظرت في أمر الناس فوجدت أحمد العاقبتين العافية وسأعمل في أمـوركم مـا تحمدون عاقبته).

والقياس بيّن في هذا، كأنه قال: المتحاربون يوم الجمل وصفين زعمـوا انهـم على حق، على حين أن الأمر مشكل والذين يواصلون الحرب بعد ذلـك يشـبهونهم. فالسلامة في الكف عن الحرب والفتن. وجاء في خطبة الحجاج بعد أن قتل عبـد الله بن الزبير: ألا أن إبن الزبير كان من أحبار هذه الأمة، حتى رغـب فـي الخلافـة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله واستكنّ بحرم الله. ولو كان شيء مانعاً للعصاة لمنع آدم حرمةُ الجنة لان الله تعالى خلقه بيده واسجد له ملائكته وأباحه جنتـه، فلمـا عصـاه أخرجه منها بخطيئته.

وآدم اكرم على الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة" والقياس هنا في قوله إن ابن الزبير ثائر متمرد احتمى بالحرم فعاقبناه فقد كان آدم في الجنة، ثـم عصى ربه الذي كرّمه، فأخرجه منها، وآدم أكرم على الله من ابن الزبيـر والجنـة أعظم حرمة من الكعبة.

المبحث الثاني

نموذج من الخطب السياسية في العصر الأموي

معاوية وخطباء عصره

في اول خطبة في العراق: استهل معاوية بن أبي سفيان[1] مؤسس هذه الدولة خلافته بخطابة أفصحت عن ذات نفسه وعما يراه في علاقته بالأمة الإسلامية التي ولي أمورها، وعن سياسته ومنهجه في حكم رعيته، خطب في الكوفة عندما تم له الصلح مع الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما وصارت إليه الخلافة فقال (يا أهل الكوفة: أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج وقد علمت انكم تصلون وتزكون وتحجون، ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم وقد آتاني الله ذلك وانتم كارهون، إلا أن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدميّ هاتين، ولا يُصلح الناس إلا ثلاث: إخراج العطاء عند محله، وأقفال الجنود لوقتها، وغزو العدو في داره، فأنه أن لم تغزهم غَزَوْكم)[2].

تحليل الخطبة

فمعاوية في خطبته هذه يصارح أهل الكوفة بانه لم يقاتلهم على فريضة من الفرائض ولا في أمر من أمور الدين، ولا لشيء في سبيل الله، ولا لشأن فيه صلاح لهم وللناس، وانما قاتلهم ليتأمر عليهم وعلى رقابهم وقد نال طلبته رغم أنوفهم وهم كارهون وهو بعد هذا يعلن أن كل دم أصيب أو مال في هذه الفتنة مطلول، وانه قد

---

[1] معاوية بن أبي سفيان: هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي مؤسس الدولة الأموية في الشام كان فصيحاً ولد بمكة سنة ٢٠ ق هـ/ ٦٠٣م واسلم يوم فتح مكة سنة ٨هـ جعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه والياً على الاردن ثم على دمشق اصبح خليفة سنة ٤١هـ مات بدمشق سنة ٦٠هـ، ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي جـ٢ ص١٩٢، الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٦ ص١٨٠ ابن الاثير، الكامل في التاريخ جـ٤ ص٢.

[2] ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ٤، ص٦.

نقض عهده معهم، ورجع عما شرط لهم، ويؤكد ذلك ويجسده حين قال (وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين) ثم ينته بعد ذلك إلى ما ذكر ما يصلح الناس والذي لا يريد لهم إصلاحاً في شيء سواه: إخراج العطاء في حينه، وإرجاع الجنود إلى ديارهم عند فراغهم من غزوهم، والخروج إلى حرب العدو في بلاده وكفى بهذا عنده صلاحاً كحال الأمة والنهوض بالدولة.

وننظر فيما عرضه معاوية في هذه الخطبة بشعبها الثلاث، فنراه يقرر انه انما قاتل لمسلمين في سبيل الإمارة والحصول على السلطان الذي يتحكم في رقابهم، ثم يقرر نقضه للعهود والشروط وغدره بذمتهم بعد أن وصل إلى ما يروم، وينتهي إلى بيان الصلاح العام والإصلاح الشامل، فيذكر أول ما يذكر ما يترضاهم به من تعجيل العطاء وما يستدنيهم عن طريقه من الوعد بأقفال الجنود لوقتها، ويضيف إلى هذين آخر الأمر غزوا العدو. وذلك كله موافق لما عرف من أساليب السياسة الأموية وما أثر عن معاوية خاصة من سعيه إلى السيادة والسلطان وتحويله الخلافة الإسلامية إلى مُلك، وبذله في سبيل ذلك الوعود ونقضه للعهود، واستمالته الناس بالعطاء والمال وقضاء المصالح واستحلاله الوسائل في سبيل الغايات.

نموذج لأولى خطب معاوية بن أبي سفيان بالحجاز تصرم بمنهجه

وانتقل معاوية مطلع هذا العهد إلى المدينة فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (أما بعد فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرّة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل أبن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها على سُنيّات[1] عثمان فأبت علي، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة، مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فان لم تجدون خيركم فأني خير لكم ولاية. والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وان

---

[1] ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٢ ص١٣٩.

لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك له دَبْـرَ أذنـي، وتحـت قدمي، وان لم تجدون أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فان أتاكم مني خير فاقبلوه، فان السيل إذا جاء أثرى وإذا قل أغنى، واياكم والفتنة، فانها تفسد المعيشـة، وتكـدر النعمة)[1].

دراسة ونقد وموازنات

فمعاوية ابن أبي سفيان ينتقل من العراق إلى الحجاز، ومن الكوفة إلى المدينـة المنورة، فيجد من نفسه هنا ما وجده هناك، ويرى في أولئك ما يـرى هـؤلاء، فقـد تولى الخلافة وهم جميعاً لها كارهون، وما نالها إلا بالقتال والصيال والمجالدة بسـيفه والأجلاب بخيله ورحله، ثم يصارح الناس بانحرافه عن سنن الخلفاء الراشـدين فـي ولايته وفي سياسته فقد نفرت نفسه نفاراً شديداً حين حاول رياضتها على ما كان من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وكما تنفر من شيء تعافه وتكرهـه أو مـن شـيء سودها ويؤذيها، أو من شيء لم تعرفه ولم تألفه فلا طاقة لها به، ولا قدرة لها عليـه، فما هذه الأعمال المكروهة أو السيئة الوبيلة، أو الغريبة البعيدة التي كان يأتيهـا أبـو بكر وعمر رضي الله عنهما، فتنفر منها نفس معاوية ذلك النفـار الشـديد؟ وحتـى سُنيّات عثمان رضي الله عنه في تساهله ويسره تأباها طبيعة معاوية، وتحيـد عنهـا، ذلك أن طبيعته كانت مهيأة لأمر آخر، وكان هناك سبيل تسلكه غيـر هـذا السـبيل جميعاً، هو سبيل المنفعة المتبادلة والمصلحة المتقارضة والإغراء بالمال، واسـتعمال الحلم والدهاء، وبذر بذور الآمال عند من يتطلعون لمكاسب اليوم وأماني الغـد وقـد كشف معاوية للناس، ما عنده من ذلك حين قال (فسلكت بها طريقاً لـي ولكـم فيـه منفعة: مؤاكلة ومشاربة جميلة. فان لم تجدوني خيركم فإني خير لكم ولاية). وبقولـه

---

[1] سُنيات تعني جمع سُنيّة تصغير سنة بمعنى الطرقة.ينظر :ابو بكر الرازي ،مختـار الصـحاح ،ص٣١٧

(والله لا احمل السيف على من لا سيف له، وان لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك له دبر أذني وتحت قدمي) وقوله (فإن أتاكم مني خير فاقبلوه، فان السيل إذا جاء أثرى، وإذا قل أغنى) وهذه العبارة ذات دلالة خاصة على ما كان لمعاوية من نظر ورأي فيما يقدم للمسلمين من عطاء، فكأنه يراه فضلاً ولا يزاه فرضاً ويعتقده غنما لهم وإحسانا اليهم، يجب أن يقنعوا به ويشكروا عليه، لاحقاً واجباً، يطلبونه طلباً، ويحاسبون عليه حساباً. وقد اكتفى في هذا الموقف بما تقدم فلم يبين له سياسة في الرعية ولا غاية من الحكم غير السلطة والتحكم، وتقديم الوعود، ونقض العهود، ولم يتعرض لأمر الدين في قليل أو كثير، وهذا تطور في سبيل الحكم وفي مناهج الخلفاء، ولجلاء ذلك ينبغي أن نرجع البصر كرتين لنرى خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهما ومنهجهم في مثل هذا الموقف حين ولي كل منهم خلافة الرسول على المسلمين ونقرن إلى ذلك ما أسلفنا من خطبتي معاوية والمنهج الذي سار عليه في حكمه والمخالف لمنهج خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

معاوية وعقيل بن أبي طالب[1]

لقد طلب معاوية من عقيل بن أبي طالب أن يلعن أخاه، وكان بينه وبين أخيه جفوة فأقام بالشام، فقال له معاوية: إن علياً قد قصعك ووصلتك، ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر، قال أفعل: وصعد المنبر، فحمد الله واثنى عليه ثم قال (أيها الناس: إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليا بن أبي طالب فالعنوه، فعليه

---

[1] عقيل بن أبي طالب: هو عقيل بن أبي طالب ابا زيد وامه فاطمة بنت أسد وكان عالماً بانساب العرب وقد ذهب بعده توفي في أول خلافة يزيد. ينظر ياقوت الحموي، جمهرة النسب، تحقيق: د. ناجي حسن، ط١، سنة ١٩٨١، جـ١ ص٢٧. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة جـ٨ ص٣١.

لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[1] ثم نزل فقال معاوية انك لم تبين- أبا يزيد- من لعنت بيني وبينه! قال عقيل والله لا زدت حرفاً ولا نقصت آخر، والكلام إلى نية المتكلم[2].

معاوية وعبد الله بن عباس: وقال معاوية مخاطباً عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن (إن في نفسي منكم لحزازات يا بني هاشم، وانـي لخليق أن أدرك فيكم الثار، وأنفي العار فان دماءنا قبلكم وظلامتنا فيكم)[3] ثم يخاطبه ويقول "لا يزال يبلغني عنكم ما تبرُك له الأبل، وذنوبكم الينا أكثر من ذنوبنا اليكم، خذلتم عثمان بالمدينة، وقتلتم أنصاره يوم الجمل[4] وحاربتموني بصفين، ولعمري ولعمري لبنو تيم[5] وعَدِي أعظم ذنوباً منا إليكم إذ صرفوا عنكم هذا الأمر، وسنوا فيكم هذه السنة، فحتى من اغضى الجفون على القذى، واسحب الذيول على الأذى، وأقول لعل الله وعسى"[6].

معاوية وعبد الله بن الزبير

ويتجاوز معاوية بن أبي سفيان نطاق السياسة والحزبية وتهييج الفتن، والتحرر من روح الدين في سبيل السلطان والملك إلى النعرة الجاهلية، فيشعل نار المفاخرة

---

[1] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين جـ٣ ص٢٦٣.

[2] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين جـ٢ ص٢٦٠. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٢ ص١١٣.

[3] ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ٢ ص١٠٥.

[4] معركة الجمل: حدثت بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث انه خرج من المدينة المنورة إلى العراق وكان معه عمار بن ياسر والحسن السبط والتقى مع جيش عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير وكان ذلك في جماد الآخرة سنة ٣٦ هـ ٦٥٨م وقتل فيها طلحة والزبير ثم عاد الإمام علي عليه السلام إلى الكوفة. ينظر ابن سعد، الطبقات الكبرى، م٣ ص٣١ الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٤ ص ص٥٠٨-٣٤.

[5] يريد بني تيم أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وبني عدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[6] ينظر: ابن عبد ربه العقد الفريد، جـ٢ ص١١٠. د. محمد طاهر دروش الخطابة في صدر الإسلام جـ٢ ص ص١٥٠- ١٦٢.

والتعظم بالآباء والتكاثر بالعدد والأموال وذكر الاحساب والأيام، وإحياء العصبية وإثارة حمية الجاهلية التي قال عنها نبينا الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ودعوها فانها نتنة" وإيقاظ ما عفى عليه وستره الإسلام، فيقاول عبد الله بن الزبير ويطاوله على مشهد من جمع قريش مخاطباً له فيقول (قاتلك[1] الله يا ابن الزبير ما أعياك وأبغاك! أتفخر بين يدي أمير المؤمنين وأبي عبد الله[2] انك أنت المتعدّي لطورك، الذي لا تعرف قدرك، فقس شبرك بفترك، ثم تعرّف كيف تقع بين عرانين[3] عبد مناف، اما والله لئن دفعت في بحور بني هاشم وبني عبد شمس لتقطعنك بأمواجها ثم لتوهِيَنَّ بك في أُجاجها[4] فأخذ عبد الله بن الزبير يفخر عليه بأبيه وأمه وجده الصديق رضي الله عنك أيها الصديق، وعمته خديجة الكبرى وزوجها رسول الله وجدته صفية[5] مخاطباً له (أسألكم بالله، أتعلمون أن أبي حواريّ رسول الله، وان اباه ابو سفيان حارب رسول الله؟ وان أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق[6] وأمه هند آكلة الأكباد؟ وجدي الصديق

---

[1] ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ١ ص١٥٧.

[2] أبو عبد الله يريد به الحسين بن علي رضي الله عنهما.

[3] عرانين، جمع عرنين وهو السيد الشريف وفي الأصل اسم للأنف أو صلب من عظمة. ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٤٢٨.

[4] توهين بك أي بمعنى تسقطك والاجاج بمعنى الملح المر. ينظر: م. ن، ص٧٣٨ و٦.

[5] صفية بنت عبد المطلب: هي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم سيدة قريشية، شاعرة باسلة وهي عمة النبي صلى الله عليه وسلم اسلمت قبل الهجرة توفيت في المدينة سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م. (ينظر: ابن الكلبي، أبو المنذر هام بن محمد بن السائب (ت١٤٦هـ/ ٧٦٤م) جمهرة النسب، تحقيق: أحمد عبد الستار فراج، طبعة محمد خليفة التونسي، (الكويت، ١٩٨٣م) ص٤٩٠. ابن سعد، الطبقات الكبرى، م٨، ص٢٧).

[6] أسماء بنت أبي بكر الصديق: هي أسماء بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر من قريش صحابية لقبت بذات النطاقين تزوجها الزبير بن العوام توفيت بمكة سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م وروى لها البخاري ومسلم (٥٦) حديثاً. ينظر ابن سعد الطبقات الكبرى م٨ ص١٨٢، أبو نعيم الاصبهاني حلية الاولياء جـ٢ ص٥٥.

وجده المشدوخ[١] ببدر ورأس الكفر؟ وعمتي خديجة ذات الخطر[٢] والحسب وعمته أم جميل حمالة الحطب؟ وجدتي صفية وجدته حمامة[٣] وزوج عمتي خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب، (سيصلى ناراً ذات لهب؟)[٤] وخالتي عائشة[٥] أم المؤمنين وخالته أشقى الاشقَيْن، وأنا عبد الله وهو معاوية"[٦]

وهذا نموذج من خطب عبد الله بن الزبير وذلك انه لما بلغه مقتل أخيه مصعب بن الزبير: خطب الناس فقال

(الحمد لله: له الخلْقُ والأمرُ، والدنيا والآخرة يؤتي المُلك من يشاء وينزعُ الملكَ ممنْ يشاء ، ويعزُ منْ يشاءَ ويُذل من يشاء، اما[٧] بعدُ، فانه لمْ يُعزّ الله منْ كان الباطل معهُ وانْ كان معه الأنام طُراً[٨]، ولمْ يُذلّ من كان الحقّ معه وان كان فرداً. ألا وانّ خبراً من العراقِ أتانا فأحزننا وأفرحنا، أتانا انّ مُصعباً قُتلَ، رحمة الله عليه

---

[١] المشدوخ بمعنى المكسور والمراد المقتول ويريد به عتبة بن ربيعة.

[٢] ذات الخطر بمعنى القدر والمنزلة.

[٣] حمامة هي أم أبي سفيان (ينظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ١، ص١٥٧).

[٤] سورة اللهب: آية رقم (٣).

[٥] عائشة بنت أبي بكر الصديق: هي عائشة (أم المؤمنين) بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه القرشية التيمية زوج النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها قبل الهجرة بثلاث سنين توفيت سنة ثمان وخمسون للهجرة ودفنت بالبقيع ليلاً ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ٢ ص ص٣٧٤-٣٧٨. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الاصحاب جـ٣ ص ص٣٨-٣٩.

[٦] ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ١ ص١٥٧.

[٧] أما: شرطية تفصيلية: وبعد ظرف مبن على الضم لانقطاعه عن الإضافة والفاء واقعة في جواب الشرط.

[٨] الأنام: هو كل ما على وجه الأرض من الخلق وطراً بمعنى جميعاً،ينظر ،ابو بكر الرازي ،مختار الصحاح :ص٣٨٩

ومغفرةٌ. فأما الذي أحزننا من ذلك، فان لفراق الحميم لذعةً ولوعةً[١] يجدها حميمة، ثمّ يرعوي ذوو الألباب إلى جميل الصبر وكريم الغراء[٢]، وأما الذي أفرحنا فان قتل المصُعب له شهادة ولنا ذخيرة، أسلمه الطّغام[٣] الصُمّ الآذان، إسلامُ النّعمَ المخُطمة[٤]، وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منهُ، فأن قُتلَ، فقد قُتلَ أبوه وعمهُ وأخوهُ وكانوا الخيار الصالحين، إنا والله لا نموت حتفَ أنوفنا[٥] ولكنْ قَعْصا بالرماحِ[٦]، وموتاً تحت ظلال السيوفِ، ألا إنما الدنيا عاريةٌ من الملك إلا على الذي لا يبيد ذكره ولا زول سلطانه، فأن تُقبل الدنيا عليُ، لم آخذها أخذ الأشر البطر[٧] وأنْ تُدبر عنّي لم أبكِ عليها بكاء الخرق المهين[٨] أقول قولي هذا واستغفر الله لي

---

[١] اللوعة بمعنى الحرقة في القلب وهي مشتقة من الفعل لاع: لوع. ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٦٠٨.

[٢] الغراء بمعنى الصبر أو حسن الصبر. م . ن ، ص٤٧٠.

[٣] الطغام بمعنى أوغاد الناس. ينظر: م . ن ، ص٣٩٣.

[٤] المخطمة: اسم مفعول من التخطيم وخطمه بالخطام أي جعله على أنفه أو جر أنف ليضع عليه الخطام والخطام بوزن كتاب كل ما وضع على انف البعير ليقتاد به: وجمعه خطم ككتب يريد انهم دفعوا به إلى الموت وقادوه إليه كما تقاد النعم إلى الجزر. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص١٨١.

[٥] حتف انوفنا: الحتف بمعنى الموت أي نموت على الفراش من غير قتل ولا ضرب ولا غرق ولا حرق وخص الأنف لان الروح تخرج نه بتتابع نفسه. ينظر: م . ن ، ص١٣٢.

[٦] قعصا بالرماح يقال مات قعصاً أي إصابته ضربة أو ريبة فمات مكانه. ينظر: م . ن ، ص٥٤٥.

[٧] الأشر: أي من يكفر بالنعمة ولا شكرها والبطر من يطغى بالنعمة أو يكره الشيء من غير أن يستحق الكراهة والفعل منهما بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع. ينظر: م . ن ، ص١٧.

[٨] الخرق بكسر الراء صفة مشبهة من الخرق بفتحتين وهو الدهش من الخوف أو حياء أو أن بهت فاتحاً عينيه ينظر والمهين بمعنى الذليل. ينظر: م . ن ، ص١٧٣.

ولكم) وعبد الله بن الزبير بن العوام وأمه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان أول مولود للمسلمين المهاجرين من سكنة المدينة شبّ فارساً شجاعاً، فصيح اللسان بليغاً، شهد رسول الله وروى عنه وحفظ القرآن واشترك في كثير من المعارك وأبلى في جميعها أحسن البلاء، وقد سبق ترجمته وقد خطب خطبته هذه في مكة المكرمة حين بلغه قتل أخيه مصعب وكان عامله على العراق في معركة قاتل فيها جيش الأمويين حتى قتل، وكان ابن الزبير قد بسط سلطانه على الحجاز واليمن ومصر والعراق وعمان، بدأ يدعو لنفسه بالخلافة بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان، وولاية يزيد ابنه وكانت دعوة الحزب الزبيري تقوم على رد أمر المسلمين إلى قريش لتختار هي من يصلح لهم من كبار الصحابة أهل السابقة في الإسلام، فبويع له بالخلافة في الحجاز سنة ٦٤هـ، وأخذ أمره يقوى وشأنه يعظم وانضم إليه من الأقطار حتى بلغ أوج سلطانه في أول عهد عبد الملك بن مروان، إذ كان قد خلا له الجو، واستطاع نشر دعوته بسبب ما انشغل به الأمويون من خلاف بينهم وتنافس على الإمارة فلما تولى عبد الملك بن مروان[1] تبدلت الحال ونهض يسوس الدولة ويقر الأمور بعزم وحزم.

ورأى أن العراق هو أول ما ينبغي استخلاصه من الأقطار إذ فيه الخطر القريب لقربه من الشام ولتغلغل العداء فيه للأمويين، فجهز جيشاً كبيراً قاده بنفسه والتحم بمصعب في معركة شديدة تفرق فيها عنه اكثر أصحابه فقاتل حتى قتل، وبذلك انتهى حكم الزبيريين في العراق ووجه من الكوفة إلى مكة بقيادة الحجاج ابن يوسف الثقفي لقتل عبد الله بن الزبير، فحاصر مكة ورماها بالمجانيق وانفضّ عن

---

[1] عبد الملك بن مروان: هو عبد الملك بن مروان بن الحكم من اشهر خلفاء بني أمية ولد بمكة سنة ٢٦هـ وامه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية توفي سنة ٨٦هـ بدمشق ومدة ولايته ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ٥ ص٢٣. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد جـ١٠ ص٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ٤ ص ص٣٤٩-٢٥٠.

ابن الزبير أصحابه حتى ابناه حمزة وخبيب، فقاتل حتى قتل سنة ٧٤هـ. وكانت خلافته في الحجاز تسع سنين، وبذلك فإن خطب ابن الزبير تغلب عليها الحماسة في الدين، وقوة الإيمان، وتتم على الصلابة في الكفاح وشجاعة القلب، في أسلوب بليغ مؤثر وتلك الشجاعة هي صفة آل الزبير عامة وقد أورد الأمثلة في ذلك بمن قتل منهم، فذكر أباه الزبير بن العوام وكان قد قتل بعد اعتزاله وقعة الجمل، إذ انصرف إلى وادي السباع فقتل وهو في الصلاة، وذكر كذلك عمه عبد الرحمن بن العوام وكان قد استشهد في وقعة اليرموك، وذكر أخاه وهو المنذر بن الزبير وكان قد اشترك في وقعة الحرة[1]، ثم التحم بعدها في معركة أخرى بجيش يزيد فقتل، وأشار إلى شجاعة آله وانهم لا يموتون حتف أنوفهم ولكن قتلاً بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف، ثم وصف الدنيا بانها عارية فهو لا يطمح في ملكها، فان تقبل عليه لم يأخذها اخذ من يكفر النعمة ويطغى، وان تدبر عنه لم يبك عليها بكاء الدَّهش الذليل.

معاوية والأحنف بن قيس

اذ دخل رجل من أهل الشام على معاوية وعنده وجوه القوم من اشهر خطباء رؤساء القبائل في هذا العصر كصعصعة بن صوحان[2] وسحبان بن وائل[3] وفيهم

---

[1] وقعة الحرة: الحرة: هي مكان قريب من المدينة المنورة دار فيه قتال شديد بين الموالين لبني أمية ويزيد ابن معاوية الذي ارسل جيشا بقيادة مسلم بن عقبة المري وبين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه بعد مقتل الحسين عليه السلام اذ حيث أسرف مسلم بن عقبة في سفك الدماء في اهل المدينة. (ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، م٥، ص ص٣٢٧-٣٢٨ البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٩٧هـ ٨٩٣م) أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، مطابع دار المعارف (مصر، د ت)، جـ٤، ص١٥).

[2] صعصعة بن صوحان: هو صعصعة بن صوحان بن حجر بن الحارث العبدي، من سادات عبد القيس من اهل الكوفة، كان بليغا عاقلاً، له شعر، شهد صفين مع علي عليه السلام، قال الشعبي: كنت اتعلم منه الخطب، ونفاه المغيرة من الكوفة إلى جزيرة "أوال" في البحرين بأمر من معاوية فمات فيها، وقيل مات بالكوفة سنة ٦٠هـ. ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١، ص٣٤٨. ابن عساكر، تهذيب ابن عساكر، جـ٦، ص٤٢٣.

[3] سحبان بن وائل: هو سحبان بن زفر بن اياس الوائلي من باهلة، خطيب يضرب به المثل في البيان يقال "أخطب من سحبان، وافصح من سحبان" اشتهر في الجاهلية وعاش زمنا في الإسلام، وكان إذا خطب يسيل عرقا ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حي يفرغ، اسلم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجتمع به وأقام في دمشق أيام معاوية وله شعر وأخبار، (ينظر: ابن عساكر تهذيب ابن عساكر، جـ٦ ص٦٥. البغدادي، خزانة الأدب، جـ٤ ص٣٤٧، ونقل عن طبقات الخطباء لأبي نعيم، (سحبان: خطيب=العرب غير مدافع، وكان إذا خطب لم يعد حرفا ولم يتلعثم ولم يتوقف ولم يفكر بل كان ... سيلا).

الأحنف بن قيس، فقام خطيباً وكان آخر كلامه في خطبته أن لعن علياً عليه السلام فاطرق الناس ثم قام الأحنف فقال "يا أمير المؤمنين: إن هذا القائل ما قال آنفاً، لو علم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله ودع علياً فقد لقى الله وافرد في حفرته وخلا بعمله وكان والله، علمنا المبرَّز بِشِقِّه[1]، الطاهر في خلقه، الميمون النقيبة، العظيم المصيبة" ثم طلب معاوية من الأحنف أن يلعن علياً عليه السلام فقام الأحنف وخطب ثم قال (أيها الناس: إن معاوية أمرني أن ألعن علياً، ألا وان علياً ومعاوية اختلفا واقتتلا وادعى كل واحد انه مبغي عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول: اللهم ألعن أنت وملائكتك وانبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والفئة الباغية على المبغي عليها، اللهم العنهم لعناً كبيراً، آمنوا رحمكم الله، يا معاوية لا أريد على هذا ولا انقص منه حرفاً، ولو كان فيه ذهب نفسي) [2]

وهذا نموذج آخر لإحدى خطب الأحنف بن قيس

قال:- "... واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والانصاف شيئاً يكفيك وفادة الوفود، واستماحة المحتاج ثم قال الأحنف في قيس من خطبة له في قوم كانوا عنده (أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك، وإياكم من مشاورة النساء، واعلم أن كفر النعمة لؤم وصحبة الجاهل شؤم، ومن الكرم الوفاء بالذمم.. اعرف الحق لم عرفه لك، واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل)[3].

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه (... اما بعد فان هذه الخلافة لقريش

---

[1] المبرز بمعنى الفائق غيره، الشق الجانب والمراد المتقدم السابق. ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٤٨.

[2] ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد جـ٢ ص١١٨. النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة (مصر، ١٩٢٢م جـ٧، ص٢٣٧)

[3] ينظر: أبو علي القالي، الامالي، جـ٢ ص٢. أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، جـ٢ ص٣٥٩.

خاصة، تتناولها بمآثرها، وأفعالها المرضية، مع شرف الآباء، وكرم الأبناء فـأتق الله يا معاوية، وانصف من نفسك فان هذا عبد الله ابن عم رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم، وانا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليٌ خلّـفَ حسناً وحسيناً، وأنت تعلم من هما، وما هما، فاتق الله يا معاوية، وأنت الحـاكم بيننـا وبين نفسك)[1].

---

[1] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٨ ص١٣١، ابن عبد ربه، العقـد الفريـد، جـ١ ص٢١٦. المسعودي، مروج الذهب، جـ٢ ص٦٧١. ابن الأثير، الكامل في التـاريخ، جـ٥ ص١٧. أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، جـ٢ ص٣٥٩، رقم ٢٠٠.

المبحث الثالث

موضوعات الخطابة واتجاهاتها الرئيسية مع نموذج لخطب بعض الخطباء، توضح اتجاهات الخطابة في الحياة السياسية والاجتماعية والدينية

تبين مما تقدم أن تحولاً كبيراً قد أصاب الحياة في العصر الأموي واصبحت الخلافة الدينية النبوية، دولة سياسية أموية وكثرت الطوائف المختلفة وسادت الحزبية وأخذت الحياة ذلك الطابع السياسي الحزبي فغلبت على الخطابة هذه الصبغة وكان طبيعياً أن تختلف موضوعاتها عندئذ عما كانت عليه في عصر النبوة والخلافة الراشدة، وان تأخذ اتجاهات جديدة اذ أصبحت موضوعاتها تمثل أحوال العصر واتجاهاته، وقد كان ابرز ألوان الحياة العامة والحياة الأدبية الخاصة ذلك اللون السياسي الحزبي الصارخ، ودخلت معارك الرأي والعقيدة والطائفية بحوارها وجدلها وفخرها ومخاصماتها، واقتحمت ميادين الحروب فيما بينها ولم يكن لها غنى عن الاحتماء بالدين، فلجأت إليه تعتمد عليه وتستظل بظله، ولم تتطمس معالم الحياة التي كانت مألوفة سائدة، فبقى للدين أقوام ينافحون عنه ويعتصمون بحبله ويتكلمون فيه ويعظون به ويقصون قصصه، ونشطت الحياة الاجتماعية ودبت روح الحضارة في الأمة وقامت فيها مظاهر الملك وتمثلت آياته، فكان من آثار ذلك الكلام في الشؤون العامة ورعاية لأحوال المجتمع ودعوات تترجم عن حاجاته وعناية بتنظيم سبله وتهذيب جوانبه وسن آدابه، وعليه فكانت الخطابة في هذا العصر تسير باتجاهات ثلاثة، يتخللها الجانب الديني والاجتماعي والسياسي وهو الغالب وفي كل اتجاه من هذه الاتجاهات الرئيسية، كان صوت الخطابة عالياً قاهراً وضوؤها منتشراً باهراً، وأثرها واضحاً ظاهراً، فقد كانت الخطابة كما ذكرنا تعبيراً عن الحياة وتتجاوب معها وتواجه مشكلاتها، وتفسر ظواهرها، وكانت عماد السياسة والأحزاب والنهضات والدعوات والثورات في نزاعها وصراعها، ولسانها في جدلها وخصوماتها، ودليل

وجودها وقوتها وحياتها فخاضت معها تلك الميادين جميعها، سلاحاً من أسلحتها الفعالة العتيدة، ومنها استقت موضوعات الخطابة في هذا العصر وعنها أخذت طابعها ولونها.

والناظر في موضوعات الخطابة في هذا العصر يجدها ممثلة كل التمثيل لأحواله واتجاهاته، تساير ها في خطواتها وتقف معها مواقفها، وتوغل ايغالها وتقوى كقوتها فأوفر الموضوعات خطباً وأغناها السياسة والحكم وما يتصل بها ويأتي بعدها الدين والوعظ ثم الاجتماع والشؤون العامة.

نموذج لخطب بعض الخطباء المشهورين في هذا العصر توضح اتجاهات الخطابة في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية.

نموذج من خطبة معاوية في طلب البيعة ليزيد

(أيها الناس: قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبض ولم يستخلف أحداً، فرأى المسلمون أن يستخلفوا ابا بكر، وكانت بيعته بيعة هدى، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين، فلذلك رأيت أن ابايع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف، ونظراً لهم بعين الانصاف)[1] ولكن نجد بشكل واضح من قام يعارض معاوية بن أبي سفيان في أخذ لبيعة لابنه يزيد واشتد في معارضته منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر[2] وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير

---

(1) ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب جـ٢ ص٢٥٩ رقم ٢٤٩.

(2) عبد الله بن جعفر: هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رَضي الله عنهما ولد بالحبشة حين هاجر ابوه وامه مع من هاجر إلى الحبشة وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اجود العرب ولم يبايع طفلاً غيره فهي من خصائصه، ينظر: المصعب الزبيري، نسب قريش ص٨٠. توفي بالمدينة سنة ٨٠هـ، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م٤ ص٤٢

والحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام[1] وعبد الرحمن بن أبي بكر[2] والأحنف بن قيس ومروان بن الحكم[3].

وهذه المعارضة تحولت إلى معركة شديدة انتهت بمذبحة استشهد فيها حفيد الرسول وكثير من آل بيته، تلك المعركة التي روت لنا الخطابة قصصها وفصلته تفصيلا، وهذا موطن يحسن أن نقف به وقفة، نتبين منها مدى ما بلغته السياسة والحزبية بهذه الأمة الإسلامية، حتى أخرجتها عن سنن دينها القويم وسبيله السوي المستقيم، وسيكون دليلنا على هذه القضية خطابة الخطباء، وشاهدنا فيها أقوال القالة الذين خاضوا غمارها وشاركوا فيها ونجد نصوص الخطابة توضح اتجاهات الخطابة في هذا العصر ونبدأ بسيد الشهداء الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي امتنع عن بيعة يزيد حينما طلبها معاوية لإبنه وأصر على هذا الموقف بعد وفاة

---

[1] الحسين بن علي بن أبي طالب: هو الحسين بن علي رضي الله عنه سبط الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ولد في المدينة يوم الخميس لثلاث خلون من شعبان سنة أربع للهجرة واستشهد ثائراً على الظلم والطغيان في واقعة الطف بكربلاء المقدسة يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة (٦١هـ) ودفن في كربلاء، ينظر: المصعب الزبيري، نسب قريش ص٤٠، الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٢ ص٢١٥، الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ٣ ص٢٨٠.

[2] عبد الرحمن بن أبي بكر: هو عبد الرحمن ابن عبد الله أبي بكر الصديق بن أبي قحافة القرشي التيمي، صحابي كان من الزهاد الشجعان، اسلم في هدنة الحديبية امتنع عن بيعة يزيد وقال اهرقلية كلما مات قيصر كان قيصر مكانه؟ لا نفعل والله أبداً مات بمكة سنة ٦٠هـ (نظر ابن قنفذ القسنطيني، كتاب الوفيات ص ص٧٢- ٧٣ ابن العماد الحنبلي شذرات الذهبي جـ١ ص٥٩.

[3] مروان بن الحكم: هو مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد بمكة ومات بالشام سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م اصبح خليفة بعد مؤتمر الجابية سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م وهو أول من ضرب الدنانير الشامية (ينظر: ابن سعد الطبقات الكبرى، جـ٥ ص٣٥. الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ٥ ص٥٣٤. ابن عبد ربه، العقد الفريد جـ٤ ص١٨٠)

معاوية، لان الحسن عليه السلام إنما تنازل لمعاوية عن الخلافة على أن تكون له من بعده، أو يكون الأمر شورى بين المسلمين، ولان يزيد لم يكن اصلح الناس لخلافة المسلمين ولا من أصلحهم لذلك، ولان الأسلوب الذي لجأ إليه معاوية كان قضاء على مبدأ الشورى وعلى حق المسلمين في اختيار خليفتهم، فقد جعلها بذلك ملكية وراثية، وإمبراطورية هرقلية، كلما مات هرقل، قام هرقل كما قال لهم[1] عبد الرحمن بن أبي بكر، وندع القول للخطابة تفصح عن جانب مما كان بين معاوية والمعارضين له في البيعة ليزيد، وبين نقضه للعهد وانحرافه في حكمه عن منهج الصحابة، ثم نمضي لنسمع صوتها فيما كان بين الحسين بن علي رضي الله عنه وأرضاه ويزيد ورجاله حتى انتهوا إلى تلك الجريمة الإنسانية والمأساة الأخلاقية وقد قدم معاوية إلى المدينة وحاول ان يقنع الحسين وكبار المعارضين ببيعة يزيد.

نموذج من خطبة الحسين عليه السلام
والرد على معاوية لأخذ البيعة

قال الحسين عليه السلام (تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به، ومن استقرائه[2] الكلاب المتهارشة عند التحارش، والحمام السُبق لأترابهن، والقينات ذوات المعازف، وضروب الملاهي، تجده ناصراً، ودع عنك ما تحاول)[3].

فقال لهم معاوية (إني قائم إلى المنبر، فقائل مقالة فإياكم أن تعترضوا عليّ حتى أتمها، واقسم بالله لئن رد عليّ رجل منكم في كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمته

---

[1] ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٣ ص٢١٤.

[2] استقراءه الكلاب أي تتبعها. ينظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة جـ١ ص١٢١. الجاحظ، البيان والتبيين جـ١ ص٣٠.

[3] ينظر: ابن قتيبة، عيون الاخبار جـ ٢ ص٢٠، ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٢ ص٢٤٧ و ٢٥٧. أبو علي القالي، الامالي جـ٢ ص٧٣. المسعودي، مروج الذهب، جـ٢ ص٦٩.

حتى يضرب رأسه) ثم قام في الناس خطيباً، فأعلن أن الحسين، وابن الزبير، وابن عمر، وابن أبي بكر قد بايعوا وسلموا وأطاعوا وهم لا يتكلمون.

فلما ولي يزيد الخلافة ارسل الى الوليد بن عتبة[1] عامله على المدينة ان يأخذ له البيعة من كبار الصحابة بالحجاز، فامتنع عبد الله بن الزبير والحسين بن علي عليه السلام وخرجا الى مكة وكتب الحسين إلى اهل الكوفة من اتباعه برأيه، فاجتمعوا هناك، وكتبوا له كتابا جاء فيه "أما بعد[2] فالحمد لله الذي قصم ظهر عدوك الجبار العنيد الذي اعتدى على هذه الامة، فانتزعها حقوقها، واغتصبها امورها وغلبها على فيئها، وتأمر عليها على غير رضا منها، ثم قتل خيارها واستبقى اشرارها، فبعداً له كما بعدت ثمود، انه ليس علينا امام فأقدم علينا فلعل الله ان يجمعنا بك على الهدى، فإن النعمان بن بشير[3] في قصر الامارة ولسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه الى عيد، ولو قد بلغنا مخرجك اخرجنا من الكوفة وألحقناه بالشام[4]، فسار الحسين عليه السلام الى العراق، فلقيه جنود ابن زياد وعليها الحرّ بن يزيد التميمي فخطيهم

---

[1] الوليد بن عتبة : هو الوليد بن عتبة بن ابي سفيان بن حرب الاموي ، امير من رجالات بني امية كان واليا على المدينة سنة ٥٧هـ في أيام معاوية طلب البيعة ليزيد من الحسين عليه وعبد الله بن الزبير فرفضا البيعة ليزيد وتوفي سنة ٦٤هـ/٦٨٤م بالطاعون (ينظر: المصعب الزبيري ، نسب قريش ص١٣٣ و٤٣٣ . ابن الاثير ، الكامل في التأريخ ج٣ص٢٠٢ و ٢٠٤).

[2] ينظر: ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج٢ص٣-٤ ا، المسعودي، مروج الذهب جـ٥ ص١٤٢،ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ ص١٧٢ الحسين، توفي ستة ٦١هـ/٦٨٠م .

[3] النعمان بن بشير : هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الانصاري ، ابو عبد الله أمير وخطيب وشاعر من الصحابة الاجلاء من اهل المدينة كان واليا على اليمن في زمن معاوية ثم الكوفة وبايع ابن الزبير . قال سماك بن حرب كان من اخطب ما سمعت له وهو الذي ننتسب اليه معر ة النعمان توفي سنة ٦٥هـ/٦٨٤م ينظر ابن حجر العسقلاني ج١٠، ص٤٤٧، تهذيب التهذيب ، ابن الاثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الخزري (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) اسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٥ ص٢٢..

[4] ينظر: الطبري ، تأريخ الرسل والملوك ج٤ ص٢٦٢ ، ابن الاثير ، الكامل في التأريخ ج٣ ص٢٦٢.

وقال[1] (ايها الناس انها معذرة الى الله عز وجل واليكم، اني لم آتكم حتى اتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم، ان اقدم الينا، فأنه ليس لنا امام فأن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فأن تعطوني ما اطمئن إليه من عهودكم اقدم مصركم، وان لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذي أقبلت منه اليكم)) ثم جعل يخطبهم مرة بعد اخرى فكان مما قاله لرجال ابن زياد (ألا وإن هؤلاء قد لزموا الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، واظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، واحلوا حرام الله، وانا احق من غَير، وقد اتتني كتبكم وقدمت على رسلكم ببيعتكم، انكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فأن تممتم على بيعتكم تصيبوا رُشدكم وان لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من اعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي واخي وابن عمي مسلم[2]، والمغرور من اغتر بكم، ومن نكث فأنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)

وهذا نموذج آخر لإحدى خطبه عليه السلام وكانت خطبته هذه في الساعات الاخيرة قبل اشتباك القتال بينه وبين الجيش الاموي. قال :

((ويلكم ما عليكم ان تنصتوا، لي فتسمعوا، قولي وانما ادعوكم الى سبيل الرشاد ، فمن اطاعني كان من المرشدين، ومن عصاني كان من المهلكين ، وكلكم عاص لامري، غير مستمع لقبولي، قد ملئت قلوبكم من الحرام وطبع على قلوبكم، ويلكم،

---

[1] الحر بن يزيد التميمي : هو الحر بن يزيد التميمي اليربوعي قائد من اشراف تميم كان من أنصار الحسين وقاتل معه بعد ان أرسل لقتاله أول الأمر توفي سنة ٦١هـ /٦٨٠م. (ينظر: ابن قتيبة، الامامة والسياسة، جـ٢، ص ص٣-٤. ابن كثير، البداية والنهاية جـ٨، ص١٤٢، المسعودي، مروج الذهب جـ٥ ص١٤٢).

[2] مسلم بن عقيل : هو مسلم بن عقيل بن أبي طالب سفير الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة ولاعقب له لأن جميع أولاده قتلوا معه بالكوفة ومقابرهم على طريق كربلاء من قضاء المسيب. (ينظر ابن سعد الطبقات الكبرى م٤ ص٢٩، ابو نصر البخاري، سر السلسلة العلوية، ص٤).

الا تتصتون؟ ألا تسمعون؟ ثم حمد الله واثنى عليه وصلى على محمد وعلى الملائكة والانبياء والرسل، وابلغ في المقال، ثم أكمل خطبته فقال: (تبا لكم ايها الجماعة وترحا، احين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفا لنا في ايمانكم، وحششتم علينا نارا اوقدناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم البأ على اوليائكم، ويداً عليهم لأعدائكم، بغير عدلٍ افشوه فيكم، ولا امل اصبح لكم فيهم الا الحرام من الدنيا انالوكم، وخسيس عيشٍ طمعتم فيه، من غير حدَثٍ كان منا، ولا رأي تفيل لنا فهلا لكم الويلات –اذ كرهتمونا وتركتمونا، تجهتموها والين قشيم والجأشُ طامنٍ، والرأي لما يستحصف، ولكن اسرعتم اليها كطيرة الدبا، وتداعيتم اليها كتداعي الفراش، فسحقا لكم يا عبيد الامة، وشذاذ الاحزاب ونبذة الكتاب، ونفثة الشيطان، وعصبة الآثام. ومحرفي الكتاب، ومطفئي السنن ، وقتلة اولاد الانبياء، ومبيدي عترة الاوصياء، وملحقي العار بالنسب، ومؤذي المؤمنين وصراخ ائمة المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين، ولبئس ما قدمت لهم انفسهم وفي العذاب هم خالدون)

تحليل الخطبة والمناسبة منها

في هذه الخطبة حدثهم الحسين عليه السلام عن انفسهم، وعن واقعهم، وعن زيف حياتهم، حدثهم كيف انهم استصرخوه على جلاديهم ثم انكفأوا مع هؤلاء الجلادين لهم عليه، هؤلاء الجلادون الذين لم يسيروا فيهم العدل، وانما حملوهم على ارتكاب الحرام في مقابل عيش خسيس، خسيس في نفسه، قليل دون الكفاية، خسيس لأنه يعمل على حد الاجل بحياة حقيرة ذليلة، خسيس باعتباره اجرا لعمل خسيس وحدثهم عن مواقفهم المتكررة من الحركات الاصلاحية، انهم دائما يظهرون العزم على الثورة والرغبة فيها، يظهرون العزم على تطوير واقعهم السيء، حتى اذا جد الجد انقلبوا جلادين للثورة بدل ان يكونوا وقودا لها، حدثهم القائد الثائر ضد الظلم والطغيان والانحراف عن الطريق السوي المستقيم عن اعدائه باعتبارهم اعدائهم

ايضا، ولكنهم يزيفون حياتهم بأيديهم، بحاربون محرريهم، من يعلمون انهم المحررون مع من؟ مع اعدائهم مذليهم وظالميهم. هذه الخطبة بهذا الأسلوب الثائر، وبما فيها من تقريع، وبما فيها من فضح لهم، كانت ملائمة تمام الملاءمة للجو النفسي السائد انذاك على الجيش الاموي فهي خطبة اجتماعية ودينية اصلاحية وسياسية مع اتجاهات الخطابة الثلاثة في هذا العصر . ان محاربي ذلك الجيش كانوا على علم بمن يحاربون فأراد ان يشعرهم بفداحة الاثم الذي يقارفونه، وأراد الحسين البطل الذي ضحى بكل غال ونفيس، وباع نفسه وأهل بيته من أجل ان يشتري مرضاة الله تعالى تنفيذا لأمر الله تعالى﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾[1] وقوله تعالى﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾[2]. واراد الحسين عليه السلام ان يسمع المجتمع الاسلامي هذا المجتمع الخاضع، صوته المدوي وبهذا اللون من البيان جعل الحسين عليه السلام من كل مسلم بركانا مدمرا على اهبة الانفجار وكذلك نجدهُ في خطبة له وقد ظهر فيها العنصر الاجتماعي في ثورته حين التقى مع الحر بن يزيد الرماحي وقد كان ذلك بعد ان علم الحسين عليه السلام بتخاذل اهل العراق عنه بعد بيعتهم له وبعد ان تبين لهذا القائد البطل الشجاع ولمن معه من اهل بيته المصير الرهيب الذي ينتظرهم جميعا وبعد ان وضّح لأخيه محمد بن الحنفية في وصيته عن سبب خروجه الى اهل العراق حيث قال (اني لم اخرج اشرا، ولا بطرا ولا مفسدا، ولا ظالما، وانما خرجت لطلب الاصلاح في امة جدي اريد ان آمر بالمعروف وانهى عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحق فالله اولى بالحق، ومن رد علي هذا اصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم، وهو خير الحاكمين) [3] وعليه فان الاصلاح في امة جده

---

[1] سورة البقرة من الآية رقم (٢٠٧) .

[2] سورة الاحزاب آية رقم (٢٣) .

[3] ينظر: الطبري، تأريخ الرسل والملوك ج٥ ص٤٠٣، ابن الاثير، الكامل في التأريخ ، ج٣ ص٢٨٠. العاملي، محسن الامين . اعيان الشيعة ، تحقيق : حسن الامين ، طبع مطبعة الانصاف ، (بيروت ، ١٩٥٨م) ق١، ص ص٢٢٨- ٢٢٩.

محمد صلى الله عليه وسلم، هو هدفه من الثورة وهنا شيء اريد ان انبه عليه في قوله (. . . فمن قبلني بقبول الحق فالله اولى بالحق) انه لم يقل: فمن قبلني لشرفي ، ومنزلتي في المسلمين وقرابتي من رسول الله وما الى ذلك لم يقل شيئا من هذا، ان قبوله يكون بقبول الحق فهذا داع من دعاته وحين يقبل الناس داعي الحق فأنما يقبلونه لما يحمله اليهم من الحق والخير لا لنفسه وفي هذا تعالٍ وتسامٍ عن التفاخر القبلي الذي كان رأس مال كل زعيم سياسي، او ديني في عصره رضي الله عنه

وهذا نموذج لخطبة له حين التقى بجيش الحر فقد خطب الجيش قائلاً:

(أيها الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من رأى سلطانا جائرا، مستحلا لحرام الله ، ناكثا لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغير، ما عليه بفعل، ولا قول، كان حقاً على الله ان يدخله مدخله، الا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن واظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، واحلوا حرام الله وحرموا جلاله وبركاته، وانا احق من غيّرْ قرأتني كتبكم، وقدمت علي رسلكم، ببيعتكم انكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فان اتممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسي مع انفسكم، وأهلي مع اهلكم، فلكم فيّ اسوة، وان لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من اعناقكم فلعمري ماهي لكم بنكر لقد فعلتموها بأبي ماضي وابن عمي مسلم والمغرور من اغتر بكم فحظكم اخطأتم، ونصيبكم، ضيعتم ومن نكث فانما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1]

---

[1] ينظر: الطبري ، تأريخ الرسل والملوك ، ج٦ ، ص١٨٨ –٢٧٠، المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٧٦

نموذج لخطبة الحر بن يزيد

قال الحر بن يزيد بعد ان انضم إلى الحسين عليه السلام في جماعة:

(يا أهل الكوفة، افما لكم في واحدة من الخصال) التي عرض عليكم رضا، لامكم الهَبَلُ العَبرُ[٢]، اذ دعوتموه حتى اذا اتاكم اسلمتوه، وزعتم انكم قاتلوا انفسكم دونه، ثم عددتم عليه لتقتلوه، امسكتم بنفسه، واخذتم بكظمه[٣]، واحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجه الى بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أصل بيته واصبح في ايديكم كالاسير، لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع ضرا وحلأتموه[٤] ونساءه واصبيبته عن ماء الفرات الجاري، الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وهاهم قد صرعهم العطش، بئسما خلفتم محمدا في ذريته، لا اسقاكم الله يوم الظمأ ان لم تتوبوا عما انتم عليه، ومن يومكم هذا، في ساعتكم هذه) ولكنهم مضوا في ضلالهم وقتلوا الحسين عليه السلام وآله واوطئوه خيلهم ومثلوا به، وحملوا رأسه، كما حملوا النساء الى يزيد بدمشق .

---

[٢] الهبل بمعنى الثكل والفقد والعبر بمعنى البكاء ، وجريان الدم. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م١١، ص ص٦٨٦-٦٨٧

[٣] الكظم بمعنى مخرج النفس . ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م١٢، ص٥٢٠

[٤] حلأه عن الماء تحليئا وتحلئه أي بمعنى طرده ومنعه . ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص١٤٨.

نموذج لخطبة زياد بن ابيه في البصرة وهي التي تدعى بالبتراء[1]

زياد ابن ابيه كان واليا على البصرة ولكن حينما ولي البصرة والفسق فيها ظاهر والرذيلة فاشية، والاستهانة بالحدود وسطوة الحكام مستشرية فرفع في وجوههم سوطه، وشهر عليهم سيفه، ولكنه غلا في ذلك وبغى وحاول ان يقلد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سياسته وشدته وحزمه، فبالغ وافرط وكانت خطابته هذه تصور سياسته في الحكم فرقى المنبر في البصرة فخطب خطبته البتراء لأنه لم يحمد الله فيها فقال ([2]أما بعد فأن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغي الموفي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا ينحاش عنها الكبير.. اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، واني اقسم بالله لاخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم اخاه ، فيقول "انج سعد فقد هلك سعيد" او تستقيم لي قناتكم، فأياي ودلج الليل، فأني لا اوتى بمدلج الا سفكت دمه، وإياي ودعوى الجاهلية، فأني لا أجد أحداً دعا بها الا قطعت لسانه، ولقد احدثتم احداثا واحدثتا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوما غرقناه، ومن احرق قوما احرقناه، ومن نقب بيتا نقبنا

---

[1] وسميت بالبتراء لأنها كانت خالية من الحمد لله والشكر له، واوردها ابن قتيبة في عيون الأخبار جـ٢، ص ص٢٤١-٢٤٣ برواية أخرى في حوادث سنة ٤٥هـ. واوردها الطبري مقاربة لذلك كما اوردها صاحب العقد الفريد من رواية المدائني موافقة في كتاب البيان والتبين ج٢ ص ص ٦٠-٦٥، ينظر: ابن الاثير، الكامل في التأريخ ج٣ ص٢٢٦.

[2] ينظر: الجاحظ ،البيان والتبين ج٢ ص ص٦٠-٦٥، الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ج٦ ص١٢٢ ابن الاثير، الكامل في التأريخ ح٣ص٢٢٦.

عن قلبه، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه، فكفوا عني ايديكم والسنتكم اكفف عنكم يدي ولساني.

أيها الناس إنا اصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا. ثم ختمها بقوله (واذا رأيتموني انفذ فيكم الامر، فأنفذوه على اذلاله[1] وايم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم ان يكون من صرعاي)[2].

فهذه الخطبة مع ما يبدو فيها من العنف والبطش فيها حديث عن اللين في غير ضعف، والشدة في غير عنف وتصريح بأنه انما يسوس الرعية بسلطان الله الذي اعطاهم، ويذود عنهم بفيئه الذي خولهم، وان له عليهم السمع والطاعة فيما احبه، ولهم عليه العدل فيما ولي، فكان في ذلك شبيها بمعاوية في حكمه.

وهذا نموذج لإحدى خطبه في الكوفة

حيث قال (أما بعد فأنا قد جرّبنا وجُربنا وسُسنا وساسنا السائسون فوجدنا هذا الامر لا يصلح اخره الا بما صلح اوله بالطاعة اللينة المشَبَّه سرها بعلانيتها، وغيب

---

[1] اذلاله جمع ذل بكسر الذال وهو من الشيء به هنا وجوهه وطرقه. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م١١، ص٢٥٩.

[2] ينظر: الجاحظ ،البيان والتبين ج٢ ص ص٦٠-٦٥، الطبري. تأريخ الرسل والملوك، ج٦ ص١٢٢ ابن الاثير، الكامل في التأريخ ح٣ص٢٢٦.

اهلها بشاهدهم، وقلوبهم بألسنتهم، ووجدنا الناس لا يصلحهم إلا لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، واني والله لا اقوم فيكم بأمر الا امضيته على اذلاله)[1].

تحليل خطبة زياد هذه

فهذه السياسة التي اتبعها زياد بن ابيه في لينها وشدتها، واختلافها باختلاف دواعيها، صورتها الخطابة وافصحت عنها، فكانت ممثلة لحال الدولة في تقبلها، ولما عند الرعية من ملاينة ومقاومة ظاهرة أو خفية، وهو امام من انتهج سياسة البطش والقسوة بل زاد على غيره من الولاة في الامصار واربى وقرن القول بالفعل، والتهديد بالتنفيذ وقد كان ذلك، لان العراق فاق سواه من البلاد في التمرد والخروج. وعدم قبول سياسة الساسة وتأتي ثورة الحسين عليه السلام في كربلاء على رأس هذا التأريخ لان تأريخ الثورات هو تأريخ الشعوب ولكي تبقى هذه الشعوب في يقظة دائمة لا يهمها البطش والاضطهاد والظلم وخنق حريتها ولكي لا تخدع عن انتصاراتها ولكي تبقى في وعي دائم لعملها التطويري الذي تمارسه يجب ان تكون في ثورة دائمة على اعدائها في الخارج والداخل لتحتفظ بانتصاراتها وثورة دائمة على نفسها، تتناول نفسها بالنقد وتفحص موقفها دائما لئلا تنحرف وتزيغ وتأريخ الامة العربية الاسلامية يجسد الاساس التأريخي لشخصيتها العقائدية والنضالية فتعصمها شخصيتها العقائدية هذه من ان تزيغ او تنحرف، وتعصمها شخصيتها النضالية من الوهن والنكول وتأريخ امتنا العربية تأريخ مضيء فالثورات الحقيقية الهادفة والمعبرة عن طموحات الجماهير التي قامت بها امتنا عبر العصور كانت دائما تعبر تعبيرا تلقائيا حرا عن هذه الامة، وعن انسانيتها، وعن رغبتها الحارة في ان تعيش متمتعة بكافة حقوقها الانسانية وتأتي ثورة الحسين بن علي بن ابي طالب رضى الله عنهما في كربلاء على رأس هذا التأريخ فهي رأس الحرية في التأريخ

---

[1] ينظر: الطبري تأريخ الرسل والملوك ج٦ ص ١٤٢ .

الثوري، وهي ثورة غنية بالعزم والتصميم على المضي في النضال الدامي الى نهايته او النصر فقد عرضت على الثائرين امتع الحياة ولكنهم ابو هذه الحياة التي سيسكتون معها عن الظلم والعسف وارهاب الامة وهي ثورة امتحن ابطالها بأقسى ما امتحن به الثائرون على مدى التأريخ، فلم يهنوا ولم يتكلموا بل ثبتوا رغم كل شيء، ثائرين الى اللحظة التي توجوا فيها عملهم العظيم بسقوطهم صرعى في سبيل مبدئهم الحق ومن هنا تأتي ثورة الحسين من انها النموذج المحتذى، النموذج الذي جاء كاملا والذي يجب ان يستوحي وان ادوات الاداء الحديثة لتتيح امكانات لا حد لها لاستخدام تاريخنا الثوري في تطوير مجتمعنا، وفي ابراز شخصيته التأريخية لعينيه، ليعمل على تركيز نضاله الحديث على الاسس التأريخية والعقائدية لحركته النضالية الكبرى عبر العصور.

نص خطبة السيدة زينب [1] في الكوفة

قالت (الحمد لله والصلاة على ابي محمد وآله الطيبين الاخيار: اما بعد: يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر! أتبكون فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنّة انما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة انكاثاً تتخذون ايمانكم دخلا بينكم. الا وهل فيكم الا الصلف النَلِفُ؟ والصَّدْرُ الشَنِفُ وملقُ الاماء؟ وغَمْزُ الأعداء؟ أو كمرْعىً على دِمْنةٍ؟ او

---

[1] زينب بنت علي بن ابي طالب رضي الله عنهما وامها فاطمة الزهراء رَضِيَّ اللَّهُ عَنها وكنيتها ام كلثوم وام الحسن ولدت في الخامس من شهر جمادي الاول وزينب اسم جامع لشجرة او وردة والعقيلة وهي المرأة الكريمة النفيسة تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر بن ابي طالب وكانت مع اخيها الحسين يوم استشهد في واقعة الطف وحملت الى دمشق وحضرت عند يزيد بن معاوية وتلقب ببطلة كربلاء لصبرها على ماشاهدته. (ينظر : المصعب الزبيري ، نسب قريش ص٤١، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م٨، ص٣٩٩. ابن حجر العسقلاني ، الاصابة في تمييز الصحابة، ج٤، ص٣٢١ ابن الاثير ، اسد الغابة في معرفة الصحابة ج٧، ص ص١٣٢-١٣٣).

كفضة على ملْحودة؟ ألا ساءَ ما قَدّمَتْ لكم أنفسكم انْ سخط اللهُ عليكم وفي العذاب انتم خالدون. أتبكون؟ وتنتحبون، أي والله فابكوا كثيرا واضحكوا قليلا. فلقد ذهبْتم بعارها وشَنارها، ولن ترحضوها بغَسلٍ بعدها ابداً. وانّى ترحضون قَتْلَ سليلِ خاتم النبوة ؟ ومعدن الرسالة، وسيد شباب اهل الجنة، وملاذِ خيرتكم، ومفْزعِ نازلتكم، ومنارِ حُجتكم ومِدرة سنتكم؟ الا ساءَ ما تَزِرون، وبعداً لكم وسُحقا، فلقد خابَ السعيُ وتَبّب الايدي وخَسِرت الصفقة، وبُؤتم بغضبٍ من الله وضُرِبَتْ عليكم الذلة والمسكنة. ويلكمْ يا أهل الكوفة! أتدرون أيّ كَبَدٍ لرسول الله فَرَيْتُم؟ وأي كريمةٍ لهُ أبرزتم؟ وأيّ دمٍ له سفكتُم؟ وأيّ حُرمةٍ له هتكتُم؟ لقد جئتم بها صَلْعاء عنقاء سوداء فقْماء، خرقاء شوهاء كطلاع الارض ومِلء السماء. أفعجبتمْ ان مطرتِ السماء دماً، ولعذاب الآخرة اخزى، وانتم لا تُنصرون، فلا يستخفنكم المُهل، فأنه لا يحفِزه البدار، ولا يخاف فوتَ الثار، وانّ ربكم لبالمرصاد)[٢].

تحليل الخطبة

قال الراوي وهو بشير بن خزيم الاسدي ونظرت الى زينب عليها السلام يومئذ فلم ار خفرة والله – انطق منها، كأنها تفرغ عن لسان امير المؤمنين علي ابن ابي طالب رضي الله عنه، وقد أومأتْ الى الناس ان اسكتوا، فارتَدّت الانفاس وسكنت الاجراس ويقول بشير ايضا فوالله لقد رأيتُ الناسَ يومئذ حيارى يبكون، وقد وضعوا ايديهم على افواههم، ورأيت، شيخاً واقفاً الى جنبي يبكي حتى اخضلت لحيته وهو يقول (بأبي أنتُم وأمي!! كُهولكم خير الكهول، وشبابكم خيرُ الشباب، ونساؤكم خيرُ النساء، ونَسْلُكم خيرُ نَسل لا يُخْزى ولا يُبْزى) قبل ان ابدأ بشرح وايضاح بعض

---

[٢] ينظر : ابو الفرج الاصفهاني ، علي بن الحسين الاموي (ت٣٥٦هـ/٩٦٦م) مقاتل الطالبيين، تحقيق السيد أحمد صقر، طبع دار احياء الكتب العربية بالقاهرة ، ١٩٤٩م) ابن طاووس ،الدين ابن القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد (ت٦٦٤هـ/١٢٦٥م)، كتاب الملهوف على قتلى الطفوف ص ص١٩٣-١٩٤ .

كلمات الخطبة للسيدة الفاضلة والبطلة ما قاله الراوي (فلم أرَ خَفِرَة والله –انطق منها) فيقال خَفِرت الجارية كاذا استحت اشدَّ الحياء فهي خفرة ومن الطبيعي ان المرأة الخفرة يمنعها حياؤها من ان ترفع صوتها او تخطب في مكان مزدحم، فمن الواضح انها اذا لم تمارس الخطابة لا تقوى على النطق والتكلم كما ينبغي، ولكن راوي هذه الخطبة يقول فلم أر خفرة والله انطق منها أي لم اراقوى منها على التكلم واقدر على الخطابة، رغم كونها شديدة الحياء وكأنها تفرغ عن لسان امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه والامام علي امام الخطباء والبلغاء والمتكلمين ولقد كان له اسلوب خاص ومستوى رفيع في كلامه وخطبه فمن ناحية كان الامام يسترسل في الكلام دون أي توقف او شرود ذهني وكان ينطق بالحروف دون أي تلكؤا في التلفظ فقد كان في غاية التمكن من الكلام والخطابة وكانت انكلمات تتبعُ من لسانه تبعاً صافياً طبيعيا والراوي كان من سمع كلام امير المؤمنين وهو الان يستمع الى كلام زينب ابنته وكأن كلامها صورة طبق الاصل لكلام ابيها من ناحية الإسلوب والبيان والمستوى. في ذلك المجتمع المملوء بالاصوات والهتافات المرتفعة من الناس واصوات الاجراس المُعلقة في اعناق الابل، في بلدة انتشر في جميع طرقها الالاف من الشرطة كي يخنقوا كل صوت يرتفع ضد السلطة ويراقبوا حركات الناس وسكناتهم بكل دقة ويقضوا على كل انتفاضة متوقعة في هذه الظروف وصل موكب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم محاطا بالحرس في تلك الاجواء والظروف، اشارت السيدة زينب الكبرى عليها السلام البطلة الشجاعة القائد الى الناس ان اسكتوا وبذلك احتبست الانفاس في صدور الناس ووقفت الابل وسكنت عن الحركة، وسكنت الاجراس المعلقة في اعناق الابل نعم، باشارة واحدة، وبتلك الروح المؤمنة بقدر الله، وقضائه القوية، والنفس المطمئنة، استولت على الموقف فقالت الحمد لله الصلاة على ابي محمد وآله الطيبين الاخيار، فقد افتتحت كلامها بحمد الله، وصلّت على جدها رسول الله، وهذا هو منتهى البلاغة، وقالت الصلاة على ابي محمد وهذا تعبير مجازي، لكنها نسبت نفسها الى جدها محمد صلى الله عليه وسلم الذي اعتبرته بمثابة

ابيها ثم وصفت اهل الكوفة بأهل الختل[1] والغدر وهو انهم مخادعون وغادرون وليس هذه المرة وانما هم سبق وان غدروا بأبيها يوم صفين وخذلوا اخاها الحسن عليه السلام وغدروا بسفير الحسين بن علي (مسلم بن عقيل) حينما بايعه الالاف من اهل الكوفة ثم تفرقوا عنه، واستطاع عبيد الله بن زياد ان يلقي القبض عليه ويقتله وهاهم اليوم يغدرون بأخيها الحسين ولكنها لم تنخدع بأصوات بكائهم وقالت لهم أتبكون وهذا البكاء هو النفاق بعينه وما فائدة البكاء وقد علقت رؤوس الابطال الشجعان على رؤوس الحراب وهم يشاهدون حفيدات الرسالة وبنات الامامة على النياق. من الطبيعي ان يبكي كل من يشاهد هذه المشاهد، ولكن اكررها مرة اخرى ما فائدة هذا البكاء فهم قد نفذوا امر الطغاة، والحاكم الطاغي لا يستطيع الظلم والتعدي الا مع وجود الارضية المساعدة، والاجواء الملائمة للظلم والطغيان، والناس بنفاقهم وخذلانهم لآل الرسول الكريم، هم الذين مهدوا للظالمين القيام بتلك الفاجعة المروعة، وهذا درس لكل مجتمع يؤمن بالله واليوم الآخر ويؤمن بمبادئ السماء ويريد ان يعيش في ظل حكومة عادلة. ثم قالت، فلا رقأت الدمعة أي بمعنى سكنت وانقطعت بعد جريانها وجفّت ولا هدأت الرنّة والرنة هنا الصوت الحزين عند البكاء. ثم تخللت خطبة السيدة زينب الكبرى بعد ان رأت ذلك البكاء الذي كله نفاق بأن دعت عليهم ومن ذلك القلب الملتهب بالمصائب والاحزان، دعت عليهم ان تَمرَّ عليهم ظروف واحوال تجعل بكاءهم متواصلاً ودموعهم مُستمرة في الجريان، لا تهدأ ولا تنقطع، ولا تهدأ رنتهم أي بكاءهم المصحوب بالنحيب والعويل، وهنا نقطة مهمة يجب ان لا نغفل عنها، وهي رغم انَّ في اغلب المجتمعات يوجد الاخيار والاشرار والطيبون وغيرهم، ومدينة الكوفة كانت كذلك ألا ان الطابع العام عليهم في ذلك اليوم هو التلون كل يوم بلون، والغدر، وقلة الالتزام بالاسس الدينية.

---

[1] الخاتل بمعنى الغادر ، ينظر ابو بكر الرازي ص ١٦٩.

من هنا .. فإذا جاءهم حاكم طاغ وعرف منهم هذه الطبائع والصفات المذمومة يسهل عليه التسلط عليهم واتخاذهم مساعدين واعواناً له في تحقيق اهدافه في التسلط والتعسف والظلم، وهم يسارعون الى التجاوب والتعاطف معه غير مبالين بنتائج ذلك، وعلاج هذا المجتمع هو التكلم معهم بكل صراحة، وبالكلام اللاذع، ولهذا نجد ان خطبة السيدة زينب واجهتهم بهذا الكلام اللاذع فلم تَعُد النصائح والمواعظ تؤثر عليهم والسيدة زينب بملاحظة انها امرأة وانها بنت الامام علي كرم الله وجهه كانت لها القدرة على التعنيف في الكلام مع الناس ولامتلاكها ايضا القدرة العظيمة على البيان والخطابة، فقد كانت مؤهلة للقيام بهذا الدور الكبير لايقاظ بعض تلك الضمائر الميتة من سباتها، ولا نعلم بالضبط كيفية القائها للخطبة من ناحية درجة الحماس والحرارة ، ولكننا نعلم انها ورثت الخطابة من أبيها امام الفصاحة وامام نهج البلاغة. ثم استخدمت التشبيه في خطبتها حينما قالت (انما مثلكم كمثل التي نقضت غَزلها من بعد قوة انكاثا) لقوله تعالى (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعدِ قوةٍ انكاثاً تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم)[1]. ومثلتهم بالمرأة ولعل اسمها زيطة أو (ريطة) بنت عمرو بن كعب كما جاء ذلك في كتب التفسير وهي امرأة حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواريها الصوف والشعر من الصباح الى نصف النهار وتصنع بذلك خيوطاً جاهزة للنسيج، ثم تأمرَهُنَّ ان ينقضن ما غزلْنَ طوال هذا الوقت ولا يزال دأبها ذلك والجنون فنون من بعد قوةٍ أي كانت تنكث غزلها من بعد احكام واتقان واستحكام وفتل للغزل، في المرة الاولى وكأنها تريد ان تصنع من ذلك الغزل اقمشة، فبعد النكث والنقض كان يفقد الصوف معظم قوته. وانكاثاً جمع نكث وهو الصوف والشعر– يبرم ويعمل منه الخيوط، ثم يُنكث ويُفل ليُغزل مرة ثانية. وقد شبه الله تعالى ناقض العهد بتلك المرأة التي نقضت غزلها من بعد قوة واتقان ثم قالت في خطبتها الغراء (تتخذون ايمانكم دخلا بينكم) والايمان جمع يَمين وهو القسم والحلف،

---

[1] سورة النحل : آية ٩٢ .

والدخل بمعنى المكر والخيانة إذ ارادت بان هؤلاء القوم كانوا يحلفون بالوفاء بالعهد ويضمرون في أنفسهم الخيانة وكان الناس يطمئنون الى عهدهم لكن اولئك كانوا ينقضون العهد، وبعد هذا التمهيد .. نقول لقد شبهت السيدة زينب عليها السلام اهل الكوفة بتلك المرأة الحمقاء من ناحية عدم الوفاء بعهودهم ونقضهم لها بسبب صفة الغدر المتجذرة في نفوسهم اللئيمة، البعيدة عن الانسانية، وعن التفكير في نتائج الامور ومضاعفاتها .

ألا وهل فيكم الا الصَّلَفُ النَطَفُ: والصَلَف: اذا قلنا صَلَفَ الرجلُ: تَمدّح بما ليس عنده اعجاباً بنفسه وتكبراً ويُقَال: اصلفتُ الرجلَ إذا أبغَضتهُ ومَقَتّه ويُعبّر عن البخيل ايضا بهذه الكلمة. هذا عند علماء اللغة ولكن يتبادر الى الذهن في قول السيدة زينب هنا من كلمة الصلف: هو الوقح ولا مانع من تفسير هذه الكلمة بهذا المعنى: فبكاؤهم بعد ارتكابهم تلك الجرائم يدل على شدة وقاحتهم وقلة حياءهم، والنَطَفُ[1] بمعنى المتلطخ بالعيب، والصدْر الشَنِف بمعنى: الشَنَفُ[2] أي البغض والشنف بمعنى المُبغِض والمعنى في هذا الصدر الذي يحتوي على شدة البُغض والعداء لاهل البيت (وملَقُ الاماء) المَلَق[3] هنا الوُدّ واللطف وان تعطي باللسان ما ليس في القلب والفعل والمعنى: انكم يا اهل الكوفة مجتمع للصفات الرذيلة ففيكم حالةُ التملّق والتذلُل لمن لا يستحق ذلك من الحكام الخونة فكما ان الاماء جمع أمة وهي العَبْدة: يتملّقْنَ الى المالك لجلب مودته ويُعطينه باللسان من الوُد والمشاعر ما ليس في قلوبهن، بل يفكرن في مصالحهنَّ حتى لو استوجبَ ذلك لَهُنَّ التذلل والتملّق والخضوع لمن ليس اهلاً لذلك انتم يا اهل الكوفة كذلك تتملقون الى حكامكم.. من مُنطلق المصالح لا الاخلاص والوفاء. واما قولها (وَغَمْزُ الاعداء) فالغَمْز[4] بمعنى الاشارة بالجفن والحاجب ولعل السيدة زينب تقصد من هذه الكلمة انكم يا اهل الكوفة انتم غَمْز الاعداء أي ان اعداء الحسين عليه السلام ينظرون اليكم من جانب عيونهم غَمْزاً

---

[1] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م٩، ص٣٣٧

[2] ينظر: أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص٣٤٨ .

[3] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م١٠، ص٣٤٧.

[4] ينظر: ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص ٤٨١ .

ويتعاملون معكم بمنتهى التحقير والاذلال، فلا كرامة لكم عندهم بل يريدونكم عبيداً وجسوراً للوصول الى اهدافهم من دون ان يكنوا اليكم أيّة محبّة او تقدير او احترام فيعتبر هذا الكلام من السيدة زينب تنبيها لاهل الكوفة على مدى فقدان عزة النفس لديهم حيث جعلوا انفسهم ادوات طيعة وذليلة بيد افراد لؤماء وهم ناسين للكرامة التي ارادها الله تعالى للبشر واننا نرى في زماننا هذا ان الموظفين المتكبرين لا يرفعون رؤوسهم ليستمعوا الى ما يقوله المراجع لهم بل ينظرون بجانب عيونهم تحقيراً واذلالاً له لان خطبة السيدة زينب هنا هي ليست مجرد كلمة قالتها في وقتها عبثاً ولا هي مجرد تعبير عن عواطفها ومشاعرها اتجاه السيد الحسين عليه السلام بل هي درس تربوي لكل جيل ولكل مؤمن ومؤمنة وهي منهاج عمل لكل امرأة مسلمة ومسلم فليست هي خطبة قد قيلت في زمن مضى وانتهى كل شيء بل هي ثورة قائمة، للثوار المسلمين في كل زمن، وهي كلمة حق عند السلطان الظالم، وهذا ما اكده جدها رسول الله في قوله (ان من اعظم الجهاد كلمةُ حق عند سلطان جائر) وحينما نكتب خطبتها لا يعني هذا من باب تسطير كلمات وحفظها وتداولها والتباكي عليها وانما هي منهاج عمل لكل من يريد ان يعيش في ظل الاسلام وينتهج الاسلام سلوكا وعملا ليجزى من الله الجزاء الاوفى، ولكن نعود ونذكر مرة اخرى انه كان في الكوفة جمع غفير من المؤمنين الاخيار الطيبين لكن هؤلاء كانوا قلة والاشرار بتعاونهم مع الحكم الفاسد آنذاك كانوا قد شكلوا هذه الواجهة القبيحة وكونوا هذه السمعة السيئة لاهل هذا البلد ثم شبهتهم بالدمنة وهو المحل الذي تتراكم فيه اوراث الحيوانات وابوالها ثم استعملت السيدة زينب التشبيه في اللغة فقالت (او كفضّة على مَلْحودة)[1] واللحد هنا بمعنى القبر والملحودة: بمعنى الجثة الموضوعة في القبر وهذا يوضح انه اذا وضعت علامة مصنوعة من الفضة على قبر رجل منحرف دينياً فسوف يكون ظاهر القبر جميلا ولكن الجثة التي في داخل القبر جيفة متعفنة، كذلك اهل الكوفة كانوا اهل التمدن والحضارة والثقافة لكنهم في الباطن كانوا بمنزلة الجيفة، حيث تجمعت فيهم المساوئ الاخلاقية كنقض العهد والغدر والخيانة فكونت لهم سوء الملف والسوابق المخزية وفي نسخة كتاب الاحتجاج للشيخ الطبرسي[2]

---

[1] ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٥٩٣.

[2] ينظر: الطبرسي، ابو منصور، أحمد بن علي بن أبي طالب، (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)، تعليقات وملاحظات : محمد باقر الموسوي الخرسان ، ط٣ مؤسسة الاعلمي ، (بيروت ، ٢٠٠٠م) كتاب الاحتجاج، ج٢، ص ص٣٠٤-٣٠٥ .

اورد قول زينب فقال (كقَصة على ملْحودة) والقَصّة[1] هنا بمعنى الجِصّ وهي البودرة والتراب المطبوخ الذي يخلط مع الماء فيصير طيناً ابيض اللون ويوضع ذلك الطين ما بين الطابوق ويكون سبباً لتماسك اجزاء البناء فما فائدة ذلك القبر الذي يُجَصّصُ ليكون جميلَ الظاهر لكنه يتضمن جثماناً نتنا لرجل خبيث او امرأة منحرفة وقد يُستفاد من بعض كتب التأريخ ان المتفرجين والمستمعين لخطاب السيدة زينب الكبرى رضي الله عنها، انقسموا الى ثلاثة أقسام، قوات الشرطة التابعين لعبد الله بن زياد، والمحايدين، والافراد الذين تفاعلوا مع كلمات خطبة السيدة زينب وتأثروا بكلامها، وبدأوا يبكون وهم يسمعون صوت الحق ينادي ويقول ان الحقّ كل الحق مع الحسين، معنا اهل البيت ولكن هل من مجيب وهذا الصوت هو نفسه صوت الامام امير المؤمنين علي عليه السلام من ابنته الشجاعة واقول لو كان عليّ حيّ وهو حيّ عند الله لما استطاع هؤلاء الشرذمة الضالة ان تتجاوز على اهل بيته ولكن أقول، وأقول، واقول كما قال الخليفة عمر بن الخطاب يوما في حق عليّ عليه السلام (تباً لدنيا خلت من علي بن ابي طالب- تباً لدنيا خلت من علي بن ابي طالب- تباً لدنيا خلت من علي بن ابي طالب) ثم قالت سيدتنا زينب (ألا ساء ما قدمت لكم انفسكم انْ سخط الله عليكم، وفي العذاب انتم خالدون) وهذه الجملة مقتبسة من قوله تعالى ﴿ترى كثيراً منهم يتولون الذين

كفروا لبئس ما قَدّمت لهم انفسهم انْ سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾[2] والمعنى: بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في الاخرة ان سخط الله عليهم والمعنى هنا يا اهل الكوفة ان اعمالكم قد اوجبت عليكم غضب الله وسخطه والبقاء الدائم في نار جهنم.

(أتبكون وتنتحبون؟ والانتحاب هو رفع الصوت بالبكاء الشديد ثم قالت أي والله (فابكوا كثيراً واضحكوا قليلا) إشارة إلى قوله تعالى﴿فليضحكوا قليلا وليبكوا

---

[1] القَصّة بالفتح بمعنى الجِصّة عَلى لغة اهل الحجاز، ينظر : ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص٥٣٨ .

[2] سورة المائدة اية رقم (٨٠) .

كثيراً﴾[1] والمعنى فليضحك هؤلاء المنافقون قليلا لأن الضحك حتى لو استمر فأنه ينتهي بفناء الدنيا وَهُوَ قليل لدى المقايسة مع بكائهم الدائم في يوم القيامة لأن ذلك (يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنة) [2] وهم يبكون فيه كثيراً وباستمرار. وهذا تهديد وانذار من السيدة زينب لأهل الكوفة وليس امرا لهم بالضحك بل أمر بالتقليل من الضحك وتهديد ضمني- ان لا مبرر لضحك وفرح يتعقبه بكاء طويل وعذاب مستمر (فلقد ذهبتم بعارها وشنارها)[3] يقال: ذهب بها أي استصحبها والعار بمعنى كل شيء يلزم منه عيب أو كل ما يُعيّر به الإنسان من قولٍ أو فعل أو يلزم منه عيب أو سب والشنار هنا بمعنى العيب والعار، والأمر المشهور بالشَنْعة وقولها (ولن ترْحضوها بغَسْلٍ بعْدها ابدا) ترحضوها: بمعنى تغسلوها والغسل ما يُغْسل به كالماء والمواد المنظفة المزيلة للاوساخ، وقد يقوم الإنسان بجريمة صغيرة، يستطيع محاصرة مضاعفاتها، وقد تكون الجريمة كبيرة جداً يحاصر أحد مضاعفاتها واثارها أو ينسب الغفلة أو السهو والاشتباه إلى مباشر تلك الجريمة، ويجعل الاعتذار سبباً، وطريقا للعفو عن ذلك المجرم، واغلاق ملفه فالمعنى هنا لا يمكن لكم التخلص من مضاعفات هذه الجناية العظمى فقد تعلقت الجريمة بقتل آل الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بأعناقكم، وسجلت في التأريخ بحيث لا يمكن تغطيتها او انكارها!! أو ذكر توجيهات واهية وسخيفة لهذا الجرم العظيم والذنب الجسيم. ثم قالت

---

[1] سورة التوبة آية رقم (٨٢)

[2] سورة المعارج آية رقم (٤)

[3] ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٤٦٥.

(وأنّى تَرْحَضون قَتْلَ سليل خاتم النبوة)[1] أي بمعنى كيف تغسلون عن انفسكم وتمحون وتمسحون عن ملفكم هذه الفاجعة العظيمة وهي قتل ابن بنت رسول الله ومعنى السليل هنا الولد، وبمعنى آخر كيف وبأي وجه يمكن لكم ان تسوغوا قتل سليل خاتم النبوة وهذا تعبير مجازي (ومعدن الرسالة)؟ وسيد شباب أهل الجنة والحسين الشهيد البطل كان مشهورا عند جميع المسلمين بكل ما للعظمة والجلالة والقداسة من معان واقوال الرسول كثيرة في حفيدة الحسين كقوله (حسين مني وأنا من حسين)[2] (احب الله من احب حسيناً) فجريمة قتل الحسين رضي الله عنه الله عنه لا يمكن ان تُقاس بجريمة قتل غيره من الابرياء لأن المقتول هنا يحمل مبادئ الإسلام كلها التي ورثها من جده رسول الله وعن والده الامام الذي استقى علمه وفكره من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وسلم وقد تربى منذ صغره في بيت رسول الله وهو الامام الذي يجب ان ينتخب ليكون اماماً وخليفة للمسلمين حينما نصحه أخوه في الإسلام عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الله عنهما بعدم الخروج إلى الكوفة وقالوا له ابق في هذا المسجد ونجمع لك المسلمين لتكون سيدهم وآمرهم ولكنه رفض لأن الله أراد له إن يكون شهيدا ليلحق بجده وأبيه وامه واخيه في الجنة ولكي يعطي درسا للمسلمين أن يقولوا لا للظالم، لا للطغيان، ولا للاستبداد في كل زمان ومكان، وليقيموا ويشيدوا دولة الإسلام الكبرى وليعيش الناس بحرية وامان وسلام وعدل ومساواة إلى ان تقوم الساعة وهذا ما يريده الله عندما اختار آدم ليكون خليفة لله في أرض الله. (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة)[3] وعليه فان قتل الحسين عليه السلام هو خسارة كبيرة للمسلمين بل هو قتل الاسلام كله وقتل الايمان كله ولكن أقول كما قال

---

[1] ينظر: ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص ٢٣٧ .

[2] كتاب بحار الانوار ج٤٣ ص ٢٦١ .

[3] سورة البقرة من الآية رقم (٣٠).

الخليفة ابو بكر رضي الله عنه (من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فأن الله حي لا يموت) وقول السيدة زينب (وملاذِ خيرتكم) والملاذ[1] هنا الملجأ والحصن الآمن الذي يُحتمى به ويُلجأ إليه في الشدائد. وخيرتكم من المؤمنين الابرار والمتفوقين في درجة ايمانهم كالتقوى والعقيدة الراسخة وحماية الدين وتقديمه عَلَى كل مصلحة.

وقولها (ومفزعِ نازلتِكم) المفزع من يفزع اليه ويلتجأ إليه والنازلة هنا بمعنى الشديدة من شدائد الدهر، تنزل بالقوم وقيل النازلة هي المصيبة الشديدة ثم قالت (ومنارَ حُجّتِكم) والمنار هنا بمعنى محلُّ اشعاع النور والحجّة تعني الدليل والبرهان للاستدلال على حقيقة الشيء والمنار محل على سطح الدار، كان الانسان الكريم يُشعل النار فيه ليلاً ليعلن للناس ان هنا محلاً للضيافة فيستدلُّ فيه ليلاً التائهون عن الطريق، او المسافرون الذين وصلوا الى البلد لتوّهم وهم يبحثون عن مأوى يلجأون اليه حتى يحين الصباح وتُطلق هذه الكلمة حاليا على الاضواء الكشافة القوية في درجة الاضاءة التي توضع على ابراج المراقبة في مطارات العالم لارشاد الطائرات الى محل المطار وخاصة في الليالي التي يُخيم الضبابُ على سماء المدينة. ولقد جعل الله الحسين عليه السلام مصباح الهدى ينير الدرب لكل تائه او متحير فهو امام من لا إمام له وشيخ من لا شيخ له، بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ولكن الناس تجمعوا عليه وكسروا المصباح وهم غير مبالين بما ينتج عن ذلك من مضاعفات، ففي الظلام تقع حوادث السرقة والسطو على المنازل والبيوت وجرائم

---

[1] الملاذ هنا بمعنى الملجأ. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٦٠٨. ابن منظور، لسان العرب، م١٢ ص٥٤١

الاغتصاب والقتل، والضياع عن الطريق ، والسقوط في الحفائر وغير ذلك اما مع وجود المصباح فلا تحدث هذه الجرائم والمآسي وكان الحسين مناراً لمن يبحث عن الحقيقة ويسأل عن الدين، ويريد الحصول على ردّ الشبهات وما يتبادر الى الاذهان من تشكيكات. واما قولها (ومدرَةِ سَنَتكم) السَنَةُ: العام القحط وقيل السَنَةُ المُجْدِبة[1] وقيل غلب اطلاقُ كلمة (السَنة) على القَحْط مثل ما غلب اطلاق كلمة (الدابة على الفرس. هذه هو معنى السنة ولم اعثر في المعاني التي ذُكرت في كتب اللغة معنى لكلمة "مِدَرةِ" يتناسب مع كلمة "سنتكم" ويحتمل ان يكون تصحيفا لكلمة "ومَدَدِ "أي من يُزوّدكم بالمؤن المادية في سنوات القحط والجدب ويخلصكم من المجاعة والموت او بمعنى يزودكم بالادلة المعنوية حينما تختارون في قضاياكم الدينية ومشاكلكم العائلية، وتتلاعب بأفكاركم التشكيكات والافكار المنحرفة، او المستحدثة، فتعيشون في ضياع، لا تفرقون بين السنة والبدعة وبين القول الحق والاقوال الباطلة المصبوغة بصبغة الدين ثم زادت السيدة زينب الكبرى من درجة توبيخ الناس مما له منها لايقاظ تلك الضمائر ولتعلن لهم انهم سوف لا يصلون الى أي هدف تحركوا من اجله فقاموا بهذه الجريمة النكراء فقالت (ألا ساء ما تَزِرون) أي: بئس ما حملتم على ظهوركم من الذنوب والجرائم، فهي من نوع لا يبقي أيَّ مجالٍ لشمول غفران الله وعفوه .. لكم.

---

[1] ينظر: ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص٣١٧ .

(وبُعداً لكم سُحقاً)[1] أي ابعدكم الله تعالى بُعداً عن رحمته وغفرانه وسحقاً أي هلاكا وبعداً يقال سَحِقَ سُحقا أي بَعُدَ اشدَّ البعد.

(فلقد خاب السعيُ، وتبّت الايدي) أي خاب ولم ينل ما طَلِبَ او انقطع رجاؤه. وتبت الايدي والتبُّ[2] بمعنى الخسران والهلاك وقيل القطع والبتر (وخسرت الصفقة) والصفقة بمعنى معاملة البيع او اية معاملة اخرى والمعنى انكم يا اهل الكوفة خسرتم المعاملة معاملة بيع الدين والآخرة في قبال الدنيا فمن الجنون ان يبيع الانسان ذلك في قبال عذابٍ مستمر مزيج بالاهانة والتحقير، وبثمن قتل ابن بنت رسول الله كل ذلك وهو يدعي انه مسلم ولعل المعنى: انكم بعتم الحياة في ظل حكومة الامام الحسين بالحياة في ظل السلطة الدنيوية فلا كرامة، ولا امان، ولا مستقبل زاهر مع هذه السلطة التي فضلتموها على قتل داعية الاسلام، ومنهج الاسلام، امامكم وسيدكم ومولاكم الحسين رضي الله عنه وارضاه. ان الدين والانضواء تحت لواء من اختاره الله تعالى هو الذي يوفر للانسان الحياة السعيدة والعزة والكرامة اما الاعراض عن ذلك فسوف يجرُ الويلات لكم وبذلك فسوف تتوالى عليكم حكومات جائرة فتعيشون حياة ممزوجة بالتعاسة والذل الشامل لجميع جوانب حياتكم الدينية والاقتصادية والسياسية والامنية. ثم اقتبست السيدة زينب رضي الله عنها من القرآن الكريم واستلهمت منه عندما قالت (وبؤتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة

---

[1] ينظر ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص٥٧ .

[2] ينظر : م . ن ، ص٧٤ .

لقوله تعالى ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله..... ﴾[1] وبؤتم بغضب من الله أي رجعتم وقد احتملتم معكم غضبا من الله تعالى، وسوف يسبب لكم هذا الغضب العقاب الاليم، والبعد عن رحمة الله، وغفرانه، بكل تأكيد. وان الجريمة مهما كان حجمها فسوف يكون غضب الله اشد، وبالتالي يكون العذاب اكثر ايلاما واشد اهانة وتحقيرا ويكون بعد المجرم عن عفو الله وغفرانه اكثر مسافة .

(وضربت عليكم الذلةُ والمسكنةُ) وضُربت بمعنى كُتِبت فلقد كتب الله تعالى لكم الذلة وقدر لكم المسكنة، بسبب كُفرانكم بنعمة وجود الامام الحسين عليه السلام والغدر به: والذلّة والذُل بمعنى الهوان، وهو العذاب النفسي المستمر، بسبب الشعور بالحِقارة والنقص والخوف من اعتداء الآخرين. والمسكنة: بمعنى الفقر الشديد والبُؤس والتعاسة. ثم بدأت السيدة زينب بوضع النقاط على الحروف من خلال خطبتها وذلك بالتحدث عن الابعاد الاخرى لحجم هذه الجريمة فقالت: (ويلكم يا أهل الكوفة! اتدرون أيَّ كبدٍ لرسول الله فَرَيْتم): والكبد هنا كناية عن الولد وقد شبهت الامام الحسين بأنه كبد رسول الله وشبهت قتله بقطع كبد الرسول الكريم وكم يحمل هذا التشبيه في طياته من معانٍ بلاغية وحقائق روحانية ثم قولها (وايّ كريمةٍ له أبرزتم؟) ويقال كريمة[2] الرجل : ابنته فالسيدة زينب هي بنت فاطمة الزهراء بنت رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فهي اذن حفيدة الرسول الكريم والحفيدة تُعتبر بنتاً للرجل وقد كان النبي الكريم يُعبر عن السيدة زينب منذ الأيام

---

[1] سورة البقرة من الآية رقم (٦١) .

[2] ينظر: القزويني، السيد محمد، خطبة السيدة زينب، ط٣، مؤسسة الاعلمي، (بيروت، ١٤٢١هـ) ، جـ١، ص ص٣٠٣- ٣١٥.

الأولى من ولادتها بكلمة بنْتي. وكانت هذه المكرمة المحترمة، تعيش في دارها خلف ستار الحِجاب، والعفاف، وتحافظ عَلَى حجابها أكثر من محافظتها عَلَى حياتها، ولكن أهل الكوفة هجموا عَلَى خِدرها وخيامها، وسلبوا حجابها، ثم اسروها وابرزوها إلى الملأ العام وكانت هذه المصيبة، أشد من جميع المصائب وقعا عَلَى قلبها بعد مصيبة مقتل أخيها الامام الحسين عليه السلام. ولنقف قليلا لنفكر ونعرف عظم الفاجعة: إذا كان سلب الحجاب عن امرأة مؤمنة عفيفة عادية اصعب عليها من ضربها بالسكاكين عَلَى جسمها، فما بالك بسلب الحجاب عن سيدة المحجبات وفخر المخدرات زينب الكبرى عليها السلام. ولم تقتصر هذه المصيبة عَلَى السيدة زينب بل شملت اخواتها الطاهرات من آل الرسول والنسوة اللواتي كن معها في قيد الاسر. وقولها (وأيّ دمٍ له سفكتم) أتعلمون يا أهل الكوفة أي دم لرسول الله سفتكم فقد اعتبرت السيدة زينب ان الدم الذي سفُك من الامام الحسين يوم عاشوراء هو دم رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف لا يكون ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل من المنبر وهو يخطب بالمسلمين من يوم الجمعة ليستقبل الحسن والحسين ويرفعهما على كتفه ويضعهما في الخط الاول من المصلين بالقرب من منبره عليه الصلاة والسلام عندما جاءوا وهم صغار ودخلوا المسجد فرسول الله الذي هو جدهما يقطع الخطبة وينزل من اجل الاخوين الحسن والحسين، ولهذا فإن كل قطرة من دمه الطاهر الزكي كان جزءا من دم رسول الله والحسين هو من اهل البيت واهل البيت كتلة واحدة يوم قال (اللهم ان هؤلاء اهل بيتي وخاصتي وحامتي لَحْمُهُم لحمي ودمهم دمي، يؤلمني ما يؤلمهم ويحزنني ما يحزنهم، انا سِلمٌ لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم انهم مني وانا

منهم)[1]. ثم قالت (وايَّ حُرْمة له هتكتم) حرمة الرجل هنا بمعنى ما لا يحل انتهاكه، وحرم الرجل اهله وهتك الحرمة يعني اهانة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل ابن بنته الحسين وسبي كريماته وبناته والهجوم عليهنّ في خيامهنّ بكل وحشية.

لقد كانت المرأة في الاسلام وحتى قبل الاسلام تمتاز بصيانة معينة وكان كل من يهينها يستحق الذم واللوم من الجميع ولكن اهل الكوفة وبأمر من يزيد وابن زياد الطاغيتين قاموا بأبشع انواع الجرائم في مجال اهانة رسول الله واهدار كرامته . ثم تقول السيدة زينب عليها السلام وهي تصف هذه الجريمة (لقد جئتم بها) أي بهذه الجريمة البشعة التي لا مثيل لها في تأريخ البشر. ثم قالت (صَلْعاء) وهي الداهية الشديدة او الامر الشديد ولعل المراد بقولها الجريمة المكشوفة التي لايمكن تغطيتها والتستر عليها واغفالها لانها هي واضحة كوضوح الشمس في النهار ثم قالت (عنقاء)[2] وتعني بذلك أي عنق كل شيء بدايته فلعل المعنى ان هذه الجريمة سوف تكون بداية لسلسلة من الازمات والويلات لكم ، فلا تتوقعوا خيراً بعد عملكم الشنيع هذا، وشوهاء بمعنى قبيحة. (وفقماء)[3] أي بمعنى العظيمة او الشديدة ولعل معنى فقماء أي معقدة بشكل لا يمكن معرفة الطريق الى حلها او التخلص من مضاعفاتها.

---

[1] جاء ذلك في الحديث المشهور بـ(حديث الكساء) المروي في كتاب العوالم للمحدث الكبير الشيخ عبد الله البحراني، ج٢ ص٩٣٠ والحديث مروي عن الشيخ الكليني بأسناده المعتبرة عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الانصاري عن السيدة فاطمة الزهراء عليهما السلام (ينظر: السيد محمد القزويني ، كتاب السيدة زينب الكبرى من المهد الى اللحد ، ط٣، مؤسسة الاعلمي، بيروت ، ٢٠٠٠م) ص٣٢ .

[2] ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٤٥٨.

[2] م. ن، ص٥٠٩.

وتعني بقولها (خرقاء)[1] كطلاع الارض أي ملؤها واما قولها (وملء السماء) لعل المعنى ان حجم هذه الفعلة اكبر من ان تشبه او توصف بمساحة او حجم معين، بل هي بحجم الارض كلها والسماء والفضاء كليهما أي ان حجمها اكبر من ان يتصور الانسان كيف لا وان من قتل مؤمنا عالماً او اماماً فكأنما قتل الناس جميعاً.

ثم قالت السيدة الفاضلة (أفعجبتم انْ مَطرتِ السماءُ دماً) وعليه فأن بعض المصادر والوثائق التأريخية تصرح بأن السماء امطرت دماً بعد قتل الامام الحسين عليه السلام وروى ذلك ابن عساكر في كتابة تأريخ دمشق قال: حدثتنا ام شرف العبدية قالت حدثتني نضرة الازدية قالت: لما قتل الحسين بن علي مطرت السماء دماً فأصبحت وكل شيء لنا ملآن دماً.

وكذلك ذكر الحافظ محب الدين الطبري الشافعي المتوفى سنة ٦٩٤هـ في كتابه ذخائر العقبى ص١٤٥ وذكر كذلك أبو نعيم في كتابه دلائل النبوة عن نضرة الازدية إنها قالت (لما قتل الحسين بن علي امطرت السماء دماً فأصبحنا وجبائنا أي آبارنا وجرارنا جمع جرة مملوءة دماً. وعن مروان مولى هند بنت المهلب قال حدثني بواب عبيد الله بن زياد إنه لما جيء برأس الحسين بين يديه رأيت حيطان دار الامارة تسايل دماً خرّجهُ ابن بنت منيع، وعن جعفر بن سليمان قال حدثتني خالتي أم سالم: قالت لما قتل الحسين مطرنا مطراً قطراً كالدم عَلَى البيوت والجدر قالت وبلغني إنه كان بخراسان والشام والكوفة خرجة ابن بنت منيع، وعن أم سلمة قالت "لما قتل الحسين مطرنا دما، وعن ابن شهاب قال: (لما قتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنه لم يُرفع أو لم يُقْلَع حجر بالشام إلا عن دمٍ) خرجهما ابن السري. كما روى البُخاريُّ في ترجمة سليم القاص تحت الرقم ٢٢٠٢ من القسم الثاني من المجلد الثاني من

---

[1] م. ن، ص١٧٣.

التأريخ الكبير ج٤ ص١٢٩ قال وعن سليم القاص (مُطرنا يوم مقتل الحسين دما) وروى القندوزي الحنفي في كتابه ينابيع المودة ج٢ ص٣٢٠ ذلك.

وروى ذلك سبط ابن الجوزي في كتابه (مرآة الزمان) ص١٠٢ وروى ذلك البلاذري في كتابه أنساب الاشراف في الحديث (٥٢) قال: حدثني عمر بن شبة عن موسى بن اسماعيل، عن حماد بن سلمة عن سليم القاص قال: (مطرنا ايام قتل الحسين دماً).

وذكر القرطبي في تفسيره الجامع لاحكام القرآن ج١٦ ص١٤١ (...قال سليمان القاضي: مُطرنا دماً يوم قتل الحسين وكان هذا المطر الاحمر كاعلان سماوي على مستوى الكون لفظاعة حادث قتل الامام الحسين عليه السلام) واستنكارا لهذه الجريمة النكراء ولكن ما اكثر العبر واقل الاعتبار ثم قالت السيدة زينب الكبرى (ولعذاب الآخرة اخزى) أي ان العقاب الصارم لقتلة السيد الامام الحسين عليه السلام سوف لا يقتصر ولا ينحصر بالعذاب الدنيوي والصفعات الدنيوية المتتالية بل ان العذاب الالهي ينتظرهم في الآخرة، ان الدنيا تنتهي ويخرج كل انسان من قاعة الامتحان وعندها يكون المجرمون في قبضة محكمة العدالة الالهية فمن يخلصهم في ذلك اليوم من رسول الله جد الحسين ليطلب من الله ليقتص من هؤلاء، ولكن يذكرني هذا القول بما قاله لاهل مكة الذين اخرجوه من مكة التي كان يحبها اشد الحب وقال حينما خرج منها والله اني احبك ولا اريد ان اخرج منك لولا انهم اخرجوني منك ثم التفت الى جبل احد عن بعد وقال ان احدا جبل يحبنا ونحبه، فجده رسول الله ماذا قال لقريش التي آذته وعذبته واخرجته من بلده. لقد وقف وقال لهم ماذا تظنون اني فاعل بكم قالوا اخ وابن اخ كريم قال فاذهبوا فأنتم الطلقاء ثم قالت وانتم تُتصرون أي يوم القيامة لا تجدون من ينصركم ولا من ينجيكم من العذاب الاليم، والمخاصم لأهل الكوفة هو اشرف الخلق، واعز البشر عند الله تعالى، هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمحامي هو جبريل سيد اهل السماء حيث يقف ظهرا لرسول الله في قضية ملف مقتل الامام الحسين عليه السلام ولكن ارادة الله فوق كل ارادة

ونوعية الجريمة وحجمها ومضاعفاتها هل تشتمل العفو والغفران من الله ولا نعلم الغيب والله هو احكم الحاكمين ثم قالت بعد ذلك السيدة زينب الكبرى (فلا يستخفنكم المُهل) والمُهل بضم الميم جمع مُهْله وهي بمعنى الانظار والامهال وعدم العجلة أي لا يصير الامْهال والتأخير في الانتقام سبباً لخِفّة نفوسكم وانتعاشها من الطرب والفرح، وبذلك تأخذكم سكرة الانتصار والظفر فالانتصار الذي يتعقبه العذاب الاليم مع فاصل زمني قصير– لا يعتبر انتصارا حقيقيا بل هو سراب مؤقت لا يعترف به العقلاء ولكنه سبحانه وتعالى لا يُهمل وبناءا على هذا لا يكون الامهال سببا لتصور خاطئ منكم بأن علة تأخير العقاب هي ان الجريمة قد تم التغاضي والتغافل عنها ولسوف تنسى بمرور الايام لانها شيء حدث وانتهى بل مضاعفات لاحقة، او ان الانتقام غير وارد حيث ان الامور قد فلتتْ من اليد كلا وألف كلا ليس الامر كذلك بل شاء الله تعالى ان يجعل الدنيا دار امتحان لجميع الناس: الاخيار والاشرار وقرر ان يدفع كلٌ من يخالف اوامر الله ضريبة مخالفته ان عاجلاً او اجلاً. فعدم تعجيل العقوبة لا يعني ان الامور منفلتة من يد الله الغالب القاهر العلي القدير فهو المهيمن على العالم كله لكنه قد يُؤخر الجزاء لاسرار وحكم يعلمها سبحانه فهو لا يُعجّل العذاب للعاصين احياناً او غالباً ولكنه بالمرصاد لقوله تعالى﴿وانّ ربك لبلمرصاد﴾[1] فكما ان الجندي الذي يجلس وراء المِتراس يُراقب ساحة الحرب، وينتظر الوقت المناسب للهجوم او لإطلاق القذيفة، كذلك العذاب الالهي ينزل في التوقيت المناسب مع ملاحظة سائر اسرار الكون ولا مناقشة في الامثال قال تعالى ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لايرتد اليهم طرفهم﴾[2] وقد روي عن الامام علي عليه السلام انه قال (ولئن امهل الله الظالم فلن يفوت اخذه وَهُو له بالمرصاد على مجاز طريقه وبموضع الشجا

---

[1] سورة الفجر آية رقم (١٤) .

[2] سورة ابراهيم آية رقم (٤٢، ٤٣) .

من مساغ ريقه)[1] ثم قالت السيدة زينب عليها السلام (فأنه لا يحفزُهُ البِدار) ويحفزه[2] يقال تحفزّ في مشيه أي جدّ واسرع فهو محتفز أي مستعجل والحفز: الاعجاب في الامر للبطش وغيره .

والبدار[3] هنا يقال: بَدَرَ الى الشيء مبادرةً وبداراً يعني اسرع وبدر فلانا بالشيء عاجله به فهي تعني انكم يا اهل الكوفة انه اذا لم ينزل عليكم العذاب الالهي ليس سببه الاهمال فأن الله تعالى لا تدفعه العجلة الى انزال العذاب لان الحكمة الالهية تجعل اطاراً للمقدرات الكونية ومنها اختيار التوقيت المناسب لنزول العذاب واختيار نوعيته هذا اولا وثانيا ان الرسول صلى الله عليه وسلم طلب من ربه او سأل ربه ان لا يُعاجل امته بالعذاب في الدنيا واستجاب الله له فجعل من القوانين الكونية عدم نزول العذاب الغيبي على الامة الاسلامية في الدنيا كرامةً واحتراماً لرسول الله وهذه الكرامة لم تكن لغير نبي الاسلام وخاتم الانبياء والرسل من الامم السالفة والانبياء السابقين في الزمن. فمعنى قول السيدة زينب (فإنه لا يحفزه البدار) أي بمعنى لا يحث الله سبحانه شيء على تعجيل العقوبة والانتقام لوجود اسباب واسرار كونية ولعدم خوف انفلات المجرم من قبضة العدالة الالهية ونقرأ في الدعاء (ولا يمكن الفرار من حكومتك) والمرصاد أي المَكْمَن وهو المكان الذي يختفى فيه عن اعين الاعداء بانتظار التوقيت المناسب للهجوم او الدفاع.

---

[1] ينظر: ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ص١٤١ خطبة (٩٧) .

[2] ينظر: ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص٦٣٨ .

[3] ينظر : م . ن ، ص ١٤٤.

نص خطبة السيدة زينب برواية اخرى .

روى الشيخ الطبرسي في كتاب الاحتجاج نص الخطبة مع وجود بعض الفروق بين النسختين. قال حذيم الاسدي: لم أر- والله- خَفِرَةً قط انطقَ منها، كأنها تَنْطِقُ وتُفْرِغُ على لسان علي عليه السلام وقد اشارت الى الناس بأن انصتوا، فارتدت الانفاس وسكنت الاجراس، ثم قالت: بعد حمد الله تعالى والصلاة على رسوله: (أما بعد، يا أهلَ الكوفة، يا أهل الختلِ والغَدْر والخَذْل[1] ألا فلا رَقَأَتْ العَبْرة ولا هدأتْ الزفْرة. انما مَثَلكم كمثلِ التي نقضت غزلها من بعدة قوة انكاثاً، تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم، هل فيكم الا الصلف والعجب، والشنف، والكذب، وملْق الاماء وغمز الاعداء، او كمرعى على دَمِنةٍ او كفِضَّةٍ على مَلْحودة، الا بئس ما قدمتْ لكم انفسكم انْ سخط اللهُ عليكم وفي العذاب انتم خالدون. اتبكون اخي؟ أجل والله فابكوا فإنكم احْرى بالبكاء، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلا فقد ابليتُم بعارها، ومُنيتم بشَنارها، ولن ترحضوها ابداً، وانّى ترحضونَ قَتْلَ سَليلِ خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة، وملاذ حَربكم، ومعاذ حِزْبكم ومقرّ سِلْمكم وآسي كلمكم، ومفْزع نازلتكم، والمرجع إليه عند مقاتلتكم، ومِدرةَ حُججكم، ومنار محجتكم، ألا ساءَ ما قدّمت لكم انفسكم، وساء ما تزرون ليوم بعثكم، فَتَعْساً تَعْساً!! ونكساً نكساً!! لقد خاب السعيُ وتبّت الأيدي، وخسرت الصَفْقة، وبُؤْتُم بغضب من الله وضربت عليكم الذلة والمسكنة، أتدرون- ويلكم- أي كبير لمحمد صلى الله عليه وسلم الله عليه وآله وصحبه وسلم فرئتم؟ وايّ عهد نكثْتم؟ واي كريمة له ابرزتم ؟ واي حُرمة له هتكْتم؟ وايُّ دم له سفكتم ؟ لقد جئتم شيئاً إداً. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض، وتخرّ الجبال وهدا؟، لقد جئتم بها شوْهاء، صلْعاء، عنْقاء، سوْداء، فقْماء، خرقاء، كطلاع الارضِ، او ملء السماء أفعجبتم ان تمطر السماء دماً، ولعذاب الاخرة اخزى

---

[1] الخذل هنا بمعنى ترك النصرة والاعانة: أي ترك عونه ونصرته ينظر : ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص١٧١ .

وهم لا ينصرون، فلا يستخفنكم المهل، فأنه "عزّ وجل" لا يحفزه البدار، ولا يخشى عليه فوت الثأر، كلا ان ربك لنا ولهم لبلمرصاد، ثم انشأت تقول عليها السلام.

مـــاذا تقولـــون اذ قـــال النبـــي لكـــم
مـــــاذا صـــــنعتم وانـــــتم اخـــــر الأمِ

بأهـــــل بيتـــــي واولادي وتكرمتـــــي
منهم اســـارى ومـــنهم ضُـــر جـــوا بـــدمِ

ماكـــان ذاك جزائـــي اذ نصـــحت لكـــم
ان تخلفـــوني بســـوء فـــي ذو رحمـــي

انـــي لاخشـــى علـــيكم ان يحـــل بكـــم مثـــل العـــذاب الـــذي اودى علـــى ارم

ثم ولت عنهم ...) الى آخر الرواية[1] ومن خلال المقابلة والمقاربة بين هـاتين الروايتين توجد هناك بعض الفروق والزيادات والاضافات بين الروايـة لبشـير بـن حزيم الاسدي الذي اعتمد عليها السيد ابن طاووس في كتابه الملهوف والراوي هنـا ممن عاصر الامام علي عليه السلام وسمع عنه وهو شاهد عيان لاحداث سنة ٦١هـ وهي مقتل سيدنا الحسين عليه السلام، والرواية الثانية يرويها حذيم الاسـدي وهـو أيضاً حسب ما ذكره الشيخ الطبرسي في كتابه الاحتجاج ممن عاصر الامام علي بن أبي طالب وسمع كلامه وممن عاصر الأحداث التي عاشها في مقتل الحسـين عليـه السلام سنة ٦١هـ في العاشر من محرم، وعليه فأقول انـي وجـدت بعـض هـذه

---

[1] ينظر: الشيخ الطبرسي ، كتاب الاحتجاج ، ج٢، ص ص٣٠٤-٣٠٥ .

الاضافات ومنها الأبيات الشعرية الاربعة والأخيرة التي ذكرت في آخر خطبة زينب والتي اعتمد عَلَى هذه الرواية الشيخ الطبرسي في كتابه الاحتجاج ان هذه الأبيات هي ليست لزينب وإنما نسبت إليها، وقد وجدت هذه الأبيات في تاريخ الرسل والملوك للطبري في ج٥ ص٤٦٦-٤٦٧ وكذلك وردت عند المصعب الزبيدي، في كتابه نسب قريش الجزء الثالث ص٨٤-٨٥ بأن هذه الأبيات قد قالتها زينب بنت عقيل بن أبي طالب التي خرجت عَلَى الناس بالبقيع وهي تبكي قتلاها بالطف كما اني وجدت ان هذه الخطبة هي نفس خطبة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب عليه السلام حينما خاطبت اهل الكوفة سنة ٦١هـ بعد قتل اخيها الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ الله عنه، وسأذكر نص خطبتها اذ قالت (ابدأ بحمد الله والصلاة والسلام عَلَى نبيه: اما بعد: يا اهل الكوفة يا اهل الختر والخذلان، فلا رَقَأت العَبْرة، ولا هَدَأتْ الرنّة، انما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً، تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم، إلاَّ وهل فيكم إلاَّ الصلف والشنف وملق الاماء، وغمز الاعداء، وهل انتم إلاَّ كمرعىً عَلَى دمنة، وكفضَّةٍ عَلَى ملْحودة، ألا ساء ما قدمت انفسكم ان سخط الله عليكم، وفي العذاب انتم خالدون، أتبكون؟ أي والله فأبكوا، وانكم والله احرياء بالبكاء ، فابكوا كثيرا واضحكوا قليلا فلقد فزتم بعارها وشنارها ولن ترخصوها بغسل بعدها ابداً)[1].

وعليه فإن هذه الخطبة وردت في كتاب اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام لمؤلفه عمر رضا كحالة يذكر ان هذه الخطبة هي لأم كلثوم جـ٤ ص ص٢٥٥-٢٥٦، وكذلك ذكرها ابن سعد في الطبقات الكبرى عند ترجمته لأم كلثوم بنت علي عليه السلام جـ٨ ص٤٦٣ بأن هذه الخطبة هي لأم كلثوم أيضاً وكذلك ورد في

---

[1] ينظر: ابي سعد، الطبقات الكبرى، م٨ ص٤٦٣ ، ابن طيفور، ابو الحسين عبيد الله بن احمد (ت٣١٥هـ/ ٩٢٦م) بلاغات النساء ص٢٧. عمر رضا كحالة، اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام ط٣،= =مؤسسة الرسالة، بيزوت١٩٧٧م، ج٤ ص ص ٢٥٥-١٥٦

[2] اينعت بمعنى نضجت ، شبه رؤوس العصاة بالثمار الناضجة التي حان قطفها . ينظر: أبو بكر الرازي، ص٧٤٥.

بلاغات النساء لابن طيفور ص٤٢، نص هذه الخطبة لأم كلثوم وليس لزينب كما ذكر الشيخ الطبرسي في كتابه الاحتجاج من انها وردت عند ابن طيفور في كتابه بلاغات النساء ص٤٢ وربما وقع الشيخ الطبرسي في وهَم ولَبس حينما نسبها إلى زينب وابن طيفور هو اقدم من الشيخ الطبرسي وعليه فإني أرجح ان هذه الخطبة هي لأم كلثوم بنت علي ابن أبي طالب رَضِي اللّه عَنه.

الحجاج بن يوسف الثقفي

نموذج من خطبه

خطب اول مقدمه العراق بالكوفة، فقال:

أنا[1] ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني

والله- يا اهل العراق- اني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها[2]، واني لصاحبها، وكأني انظر الى الدماء بين العمائم واللحى. ابن جلا[3]: علم محكي وهو رجل مشهور بالفتك والبيت لسحيم وهو شاعر مخضرم أي بمعنى انا كابن جلا في الغارة والشدة، أو ابن رجل جلا الامور وكشف الصعاب والثنايا، طرق الجبل ومنعطفاته، والعمامة من معانيها خوذة الحرب ووضعها: جعلها على الرأس استعدادا للحرب. ووضع العمامة ايضا خلعها وكانت عادة العرب ان يلوث طالب الثأر العمامة على رأسه، ويخرج للاخذ بثأره فأذا ادركه وضع العمامة وقد استشهد الحجاج بهذا البيت وهو يزيح لثامه عن وجهه.

---

[1] ينظر: اليعقوبي ، تأريخ اليعقوبي ج٢ص١٩١ القلقشندي ، صبح الاعشى ج١ ص ص٣١٩-٣٢٠ جواد ، مصطفى ، (الدكتور) الاساس في تأريخ الادب العربي ط٤،الشركة الاسلامية للطباعة والنشر، (بيروت ، ١٩٥٧م) ص٣٠٣ .

[2] القلقشندي، صبح الاعشى ج١ ص ص٣١٩-٣٢٠ ، د.مصطفى جواد ، الاساس في تاريخ الادب العربي، ص٣٠٣ .

هـــذا اوانُ للشَـــدّ[1]، فاشـــتدي (زِيَـــمْ)
قـــدْ لَفّهـــا الليـــلُ بســـواقِ حُطَـــمْ

لـــيس يراعـــي إبِـــلٍ ولا غَـــنَمْ
ولا بجـــزّارِ علـــى ظهْـــرِ وضـــمْ

قد لفّها الليل بعصلبي[3] أرْوَحَ خَـــراجٍ مـــن الـــدَّوِيّ

---

[4] الشد بمعنى العدو وزيم هو اسم ناقة او فرس والسواق الحطم أي المشتد في السير الـى غايتـه قالها في شريح بن ضبيعة وقد غزا اليمن فغنم وسبا ثم ضل وهو راجع ، فساق بأصحابه سوقا عنيفا حتى نجوا . (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م٣، ص٢٣٤)

[5] الوضم : بمعنى الخشبة التي يقطع عليها اللحم والمراد هنا انه ليس بضعيف الشـأن كهـذين ، الراعي والجزار . ينظر: م. ن، م١٢، ص٦٤.

[6] العصلبي : بمعنى الشديد القوي الصعب والاروع بمعنى الذكي والدويّ بمعنى الصحراء لا علم بها ولا امارة ، والدو : الصحراء والمراد انه متغلب على الشدائد ومتخلص من كل صـعوبة . ينظر ،ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح: ص٤٣٦

مُهاجِر[1] ليسَ بأعْرابيّ
قـــد شَـــمّرتْ عـــنْ ســـاقها، فَشـــدّوا
وجَـــدّتِ الحـــربُ بكـــم فجـــدّوا

والقـــوسُ فيهـــا وَتَـــرٌ عُـــرُدّ
مِثْـــلَ ذِراعِ البَكْـــرِ أو اشـــدُّ

لابُدَّ مما ليسَ منهُ بُدُّ

اني والله- يا اهل العراق، ما يُقعقَعُ[2] لي بالشّنانِ ولا بغُمْز جـانبي[3] كتغمـاز التينِ، ولقد فُرِرْتُ[4] عن ذكاء، وفتشْتُ عن تجربة، وان امير المؤمنين - اطـال اللهُ بقاءهُ- نَثَلَ كنانتهُ بين يديه، فَعَجَمَ عيدانها، فوجدني امرّها عوداً واصـلبها مكسـراً. فرماكم بي، ولانكم طالما اوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقـد الضـلال والله لاحزمنكم حَزْمَ السَّلَمةِ[5]، ولاضربنكم ضَربَ غرائبِ الابلِ، فأنكم لكأهلِ قَرْيةٍ كانـت

---

[1] قال في لسان العرب : كل من اقام من العرب بمباديهم او حواضرهم ولم يلحقوا بـالنبي ولـم يتحولوا الى امصار المسلمين التي احدثت في الاسلام اوان كانوا مسلمين فهم غيـر مهـاجرين وليس لهم في الفيء نصيب. ويسمون الاعراب:م،ن،ص٦٩٠

[2] القعقعة : صوت الجلود اليابسة والشنان جمع شن وهو الجلد اليابس أي لا يفزعه ما يفزع سواه من الضعفاء. (ينظر: أبو بكر الرازي، ص٥٤٥).

[3] أي انه صلب العود ، معروف بذلك ، فلا داعي لاختبار حقيقته . (ينظر: ابن منظـور، لسـان العرب، م٥، ص ص٣٨٩-٣٩٠

[4] فر الدابة أي كشف عن اسنانها لمعرفة عمرها والمراد هنا التعرف الي ولختياري عـن فطنـة. ينظر: أبو بكر الرازي، ص٤٩٤.

[5] السلمة هي شجرة شائكة يعمر خرط ورقها فتعصب اغصانها وتخبط بالعصـا ليسـقط فتأكلـه الماشية ، وضرب غرائب الابل لانها تضرب عنـد الهـرب او الخـوض. (ينظـر: م ، ن ، ص٣١١).

آمنة مطمئنةً يأتيها رزقُها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعمِ اللهِ، فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون –والله –ما اقول الا وفيتُ ولا اهمُّ الا امضيتُ، ولا اخْلق[1] الافَرَيْتُ وان امير المؤمنين امرني بأعطائكم أُعطياتكم، وأن اوجهكم لمحاربة عدوكم مع المُهلب بن ابي صفرة، واني اقسمُ بالله لا اجدُ رجلاً تخلّقَ بعد عطائه ثلاثةَ ايامٍ الا ضربْتَ عنقُه[2].

دراسة ونقد وتحليل وتعليق

هذه الخطبة من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي ايام ولايته العراق لعبد الملك[3] بن مروان وهي كما نرى تغلب[4] عليها فخامة التركيب، وانتماء الغريب وارهاب السامع بالزجر والوعيد، والاستشهاد بالرجز وغريب الشعر، لبعث المهابة والرهبة في نفوس السامعين وهي– بعد– تعبر عن نفسية الحجاج وعنفه وسياسته القائمة على الشدة والبطش، حيث تولى الحجاج العراق بعد قضائه على ابن الزبير في مكة وهو يموج بالفتن والعصيان والنقمة على الامويين، فأراد عبد الملك ان يرمي به العراق بعد ما خبر من دهائه وحزمه واقدامه وقسوته ليقر الامور فيه، فيأمن هذا الجانب ، فساسهُ بالعنف، ونفر مقاتلته مع المهلب لحرب الخوارج بعد ما

---

[1] اخلق أي بمعنى اقدر ، وضربت بمعنى قطعت . ينظر: أبو بكر الرازي، ص١٨٧.

[2] المهلب بن ابي صفرة : ابو سعيد قائد اموي ولد بالبصرة ونشأ فيها سنة ٧هـ واشتهر بمقاتلة الخوارج فلم يكن أشد منه عليهم، ولاه الحجاج حربهم وجعله عامله علَى خراسان توفي سنة ٨٢هـ/ ٧٠٢م. ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٨، ص١٩. ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ٢، ص١٤٥..

[3] عبد الملك بن مروان بن الحكم الاموي القريشي ابو الوليد ولد سنة ٢٦هـ/٦٤٦م ونشأ في المدينة فقيها واسع العلم انتقلت اليه الخلافة بعد وفاة ابيه سنة ٦٥هـ توفي بدمشق سنة ٨٦هـ /٧٠٥م ينظر اليعقوبي ، تأريخ اليعقوبي ج٢ ص ص١٨٨-١٩٧. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٨، ص١٩.

[4] ينظر: المبرد، الكامل في اللغة والادب، جـ١، ص١٨١. الدكتور محمد طاهر دروش، الخطابة في صدر الاسلام، جـ٢، ص ص٣٤٧- ٣٤٩.

اعطاهم كامل اعطياتهم فهدأت به الاحوال، وكسر شوكة الخوارج وثبت ملك بني امية ومدَّه شرقاً الى تخوم الصين وكان اختيار عبد الملك للحجاج ليضطلع بهذه المهمات اختياراً فيه التوفيق للسياسة الاموية، وكان الحجاج قبل ذلك يطمح الى هذه الولاية الكبرى، فإنه بعد ان قضى على ابن الزبير في الحجاز، كتب الى عبد الملك (اني وقد حزت الحجاز بشمالي، وبقيت يميني فارغة) فبعث اليه بعهد العراق. والذي تقوم عليه شخصية الحجاج في سياسة الحكم هو طاعته المطلقة لسادته والاخلاص في خدمتهم، وطموحه الى عليا المراتب، وضبط الامور ولو عظم في ذلك الثمن وذلك هو سر اخذه الناس بالقسوة وقد نجد لهذه الخصائص امثلة من نواحي سيرته واعماله، فمن ذلك انه لم يرتض لنفسه البقاء في الطائف بلدته التي فيها ولد ونشأ، يعلم بها الصبيان، كما كان يصنع ابوه من قبل بل رمت همته الى الشام، دار الخلافة وقبلة انظار الطامحين والطامعين، فانتظم في شرطة روح بن زنباغ الجذامي وزير عبد الملك بن مروان ، فعرف فيه مضاء العزم وحسن التدبير فقدمه لعبد الملك، فوكّل اليه ضبط عسكره الذي سيّره لقتال زفر بن الحارث وكان قد انحاز لابن الزبير، فقام بذلك قياما لفت اليه نظر عبد الملك، فولاه بلدة تدعى (تبالة) من اعمال اليمن فسار اليها، حتى اذا قاربها استصغرها اذ كان يحجبها عن النظر تل صغير، وعاد مستعفيا عبد الملك ولايتها، وقد قيل في ذلك (اهون من تبالة على الحجاج)، وظل ملازما مركز لخلافة حتي إذا اراد عبد الملك ندب الناس لقتال ابن الزبير في الحجاز بعد القضاء على اخيه مصعب في العراق لم يجد خيرا من الحجاج فولاه الحجاز سنة ٧٥هـ بعد القضاء على ابن الزبير ثم ضم إليه العراق، وظل

يعمل في خدمة الامويين لعبد الملك ولابنه الوليد[1] من بعد حتى وفاته سنة ٩٥هـ ودفن بواسط وهي المدينة التي انشأها في العراق وعمرت بعده دهرا طويلا. ويعد الحجاج من ابلغ الخطباء في الامة العربية في العصر الاموي وهو ثالث ثلاثة طبعوا الخطابة العربية طابعها القوي: اولهم علي بن ابي طالب، وثانيهم زياد بن ابيه، وكان من الفصحاء الذين لم يؤخذ عليهم لحن قط قال الاصمعي (اربعة لم يلحنوا في جدّ ولا هزل: الشعبيُّ، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وابن القِرِيّة والحجاج افصحهم) ولنشأته في الطائف ومخالطته البدو الضاربين حولها اثر في هذه الفصاحة. ومن اعماله المأثورة بنقط[2] القرآن الكريم حين كثر الخطأ في التلاوة، اذ كان نقط ابي الاسود الدؤلي[3] على عهد زياد بن ابيه لم يمنع التحريف والتصحيف واللحن (الجارف في دير السمعان في البصرة في خلافة عمر بن عبد العزيز) فاستدعى من ائمة العربية والقراءة يحيى بن يعمر العدواني[4] ونصر بن عاصم الليثي[5]، فوضعا الاعجام (نقط قسم من الحروف تمييزا لها مما يشبهها في الرسم)

---

[1] الوليد بن عبد الملك : هو الوليد بن عبد الملك بن مروان وامه ولادة بنت العباس ، أبو العباس من ملوك الدولة الاموية في الشام ولي الخلافة بعد وفاة ابيه سنة ٨٦ هـ وهو مدة خلافة ٩ سنين و٨ أشهر ونقش على خاتمه يا وليد انك ميت توفي سنة ٩٦هـ/٧١٥م (ينظر: اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج٣ ص٢٧، ابن الاثير، الكامل في التأريخ ج٥ ص٣).

[2] ينظر الدكتور محمد بهجة الاثري ، الاساس في تأريخ الادب العربي ص٣٤.

[3] ابو الاسود الدؤلي: هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني واضع علم النحو وهو من التابعين نقط القرآن الكريم بأمر من علي بن ابي طالب توفي سنة ٦٩هـ في الطاعون الجارف في دير السمعان بالبصرة في خلافة عمر بن عبد العزيز. ينظر : ياقوت الحموي معجم الادباء ج٢ ص١٢. ابن خلكان وفيات الاعيان ج٢ ص٥٣٥

[4] يحيى بن يعمر العدواني: هو يحيى بن يعمر الدمشقي العدواني ،أبو سلمان: أول من نقط المصاحف ولد بالاهواز وسكن البصرة وكان من علماء التابعين عارفا بالحديث والفقه ولغات العرب من كتاب الرسائل الديوانية أدرك بعض الصحابة وكان فصيحا ينطق بالعربية المحضة وصحب يزيد بن المهلب إلى خراسان سنة ٨٣هـ ولي القضاء بمرو توفي سنة ١٢٩هـ/١٦٣٠م ينظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج٢ ص٢٢٦. الزبيدي، محمد بن محمد (ت١٢٠٥هـ/ طبقات النحويين واللغويين، ص٢٢، اليافعي، مرآة الجنان، جـ٢، ص٢١

[5] نصر بن عاصم الليثي الزبيدي، هو نصر بن عاصم الليثي من أوائل واضعي علم النحو قال عنه ياقوت كان فقيها، عالما بالعربية من فقهاء التابعين توفي بالبصرة عام ٨٩ (ينظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ٧، ص٢١٠. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ج٢ ص٢١ .).

ودفعا لالتباس هذا النقط بنقط الاعراب الذي وضعه ابو الاسود حوّل نقط الاعراب الى الحركات والسكون المتّبعة الان. ولهذا فأننا حين نقرأ هذه الخطبة ونمعن النظر فيها وندقق ونستنتج ونحلل نجد انه من الواضح كل الوضوح ان الحجاج كان يَعدُ هذه الخطبة الضربة الاولى في اول جولة له مع اهل العراق، وان اثارها ستحدد طريقه، وتكشف له موقفه، فأن فاءت عليه بثمرة طيبة فقد تبدت له بوادر الامل في نصر على هؤلاء الشاغبين، الذين استشرى داؤهم وعز دواؤهم، ولاحت له بشائر النجاح في سياسة اهل العراق الذين استعصت رياضتهم من اجل ذلك حشد لها ما نرى من عزيمته وسطوته، وافرغ فيها ما استطاع من بيانه وبلاغته، واحاطها بألوان من تهاويل الاخراج، يعلى بها شأنها وشأنه ويعز جانبها وجانبه، ويعمق أثرها وأثره في النفوس، ويأخذ بها على الناس أبصارهم وأسماعهم وأنفاسهم، فالخطبة تعلن عن بطش الجبارين، وبأس الطغاة الظالمين، اهل الجراءة والسطوة والشدة والتجربة والذكاء والمرارة والصلابة والعنف والقسوة، الذين لا يعرفون الا ضرب الاعناق المتطاولة، وقطف الرؤوس المونعة، وازهاق الارواح واراقة الدماء بين العمائم واللحى.

وهي تعلن ايضا عن سياسته، اذ يجزي الشر بمثله ويزيد ويلحو الناس لحو العصا، ويقرعهم قرع المروة، ويعصبهم عصب السلمة، فأن لم يستقيموا على الحق اذاقهم عذاباً اليماً حتى يشغل كل امرئ منهم بما ابتلى به في جسده عن امر غيره ويأمرهم بالعدول عن تشفيع الشفعاء، وعقد الاجتماعات، والرواح والغدو في الجماعات، والقال والقيل، والدخول فيما لايعني وان يتوجهوا لقتال عدوهم بعد اخذ اعطياتهم، فمن تأخر بعد ذلك ثلاثاً سفك دمه، وانهب ما له، وهدم منزله وتركه كأس الدابر، واقسم بالله قسماً مؤكداً على مضية في ذلك وانفاذه، فإنه لا يعد الا وفى، ولا يهم الا امضى ولا يخلف الا فرى. وقد نجح الحجاج في عرض نفسه وسياسته بهذه

الخطبة، وكان اعتماده في هذا النجاح على عاملين هامين: قدرته البلاغية واستعانته بالمؤثرات المختلفة. فقد دخل الكوفة في اثنى عشر راكبا وفي هذا من دلائل الاعتزاز بالنفس والثقة بها، والاستهانة بالناس ما فيه، وفيه ايماء بأنه فوق ان يخشى واعظم من ان ينال منهم بمكروه، وقد اعتم بعمامة خز حمراء غطت اكثر وجهه، وتلثم، وتقلد السيف وتنكب القوس وقعد فترة صامتا على المنبر، والناس ينقلون الطرف في هيئته، ويعجبون لصمته، فلما تجمعت حواسهم عنده، وشخصت ابصارهم اليه، نفض عنه الصمت، واسمعهم ذلك الكلام العجيب، فكان للكلام عنفه وقوته، واسره وبلاغته، وقد استهله بذلك الشعر الغريب، وحشد فيه تلك الاستعارات العجيبة، والصور المفزعة المتعاقبة والجمل الزاجرة القاهرة، تشبه الصخور المنحدرة، وتمثل الويل والبلاء والدمار والفناء، وشفع ذلك بأقتباس آيات الانذار والتهديد والوعيد مع حسن الديباجة، وعلو النغمة والتنقل من معنى لآخر، يشبهه في جزالة لفظه ورصانة عبارته والخاصة في الزجر والتقريع والتهديد، والنفس ممتد، وقوة البيان تزداد، والعاطفة تدفع، حتى انتهى من كلامه اقوى منه حين بدأه، عندئذ خشعت القلوب والاصوات، وادرك اهل الكوفة انهم عند أمير جبار عنيد، يسفك الدماء ويظلم العبيد، لا يقعقع له بالشنان، ولا يغمز جانبه كتغماز التين فهذه المؤثرات المختلفة من حال قَدْمته وهيئته وتسلحه وجلسته، ومن اجلابه على الناس بخطابته، في زجرها ووعيدها والفاظها وعباراتها، واستعاراتها، وصورها، وشعرها وقرآنها، الى ما

عرف عنه من حسن تفصيله للكلام وجودة منطقه فهذا مالك بن دينار[1] قال: "ما رأيت احداً أبين من الحجاج انه كان ليرقى المنبر، فيذكر احسانه الى اهل العراق، وصفحه عنهم، واساءتهم اليه، حتى اقول في نفسي: اني لاحسبه صادقا، واني لأظنهم له ظالمين"[2].

وكل ذلك كتب له النجاح، وكتب على اهل العراق الاذعان وتأثير الخطيب بصوته في الجماهير امر مقرر ويقول الدكتور طه حسين (فالخطابة تلذنا عندما نسمع صوت الخطيب، والتشكيلات المختلفة التي يشكل بها هذا الصوت، ونرى هذه الحركات المتباينة التي يتحركها الخطيب مرة بيده، ومرة بجسمه كل هذه تصحب الكلام فتقوي لذته الفنية، بحيث لا تكون اللذة واحدة اذا سمعنا الخطيب، او قرأناه، ونحن نعلم ان من اشهر خطباء الثورة الفرنسية من كان يلهب الجمهور بخطبه، التي ربما كان السخف فيها اكثر من الكلام الممتع)[3] فلا جدال في ان الحجاج كانت له شخصية قوية فذة وانه كان باطشا جبارا وانه خطيبا مفوها، ولكن عوامل الاثارة والتأثير المختلفة لها شأنها الكبير في المواقف الخطابية ولا يصح اغفال جانبها بحال من الاحوال. واذا دققنا لكي نقف وقفة عند خطبة الحجاج السابقة لننظر في بنائها، ومدى توفقه الى الاحسان فيها واول ما يلاحظه الدارس ان هذه الخطبة ليست محكمة البناء والتأليف، ولم يجر في صياغته لها على النظام المألون، كما فعل زياد بن ابيه

---

[1] مالك بن دينار : هو مالك بن دينار البصري ، أبو يحيى من رواة الحديث ، كان ورعا زاهداً يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالاجرة توفي في البصرة سنة ١٣١هـ/٧٤٨م .قال المعتمر عن أبيه سليمان (ما رأيت احاً قط ازهد من مالك بن دينار). (ينظر: ابو نعيم الاصبهاني ، حلية الاولياء ج٢ ص٣٥٧. ابن الجوزي، صفة الصفوة ج٣ ص٢٣٦. ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج١ ص٤٤٠ ابن حجر العسقلاني تهذيب التهذيب ج١٠ ص ١٤-١٥).

[2] ينظر: الجاحظ، البيان والتبين ج١ ص١٥٥.

[3] ينظر: طه حسين ، الشعر والشعراء ، ص٤١ .

في خطبته البتراء حين قسمها فقرا، كل فقرة قامت بغـرض خـاص وصـلحت لان تكون خطبة مستقلة في ذلك الغرض فهذه الخطبة للحجاج تناولت بالكلام ثلاثة معان، الاول ذكره حال اهل العراق وما عنده من جزاء لها، وعقاب عليها، والثاني عرضـة نفسه وحديثه عنها وتهديدهم بسطوته، وقدرته على البطش بهم والثالث أمرهم بالتوجه لقتال الاعداء، وما اعده من الفتك بالمتخلفين، ولكنه لم يجر في عرض هذه الامـور على النظام المفروض ، من استيفائه الكلام في كل معنى او غرض قبل الانتقال الـى غيره، وترتيب اجزاء القول على ما ينبغي ان يكون عليه، فبدأ بالغرض الاول وهـو تصويره لما هم فيه، ثم انتقل الى الغرض الثاني، حتى اذا ما عنّ لـه العـدول الـى غيره تركه الى الغرض الثاني وهو الحديث عن نفسه وتجاربه، ومواهبه، ثم عاد الى الغرض الاول، حتى اذا عنّ له العدول الى غيره تركه الى الغرض الثاني، ثـم تمـم الكلام بعد هذا وذاك بالغرض الثالث وهو أمرهم بالقتال والتوجه الى الاعداء وهو في كل مرحلة من هذه المراحل يقرن قوله بالتهديد والوعيد، والانذار بالاخـذ الشـديد. وكان في استطاعته ان يبدأ بغرضه الاول حتى اذا استوفاه انتقل الى تاليه، ثم ينتهـي كما انتهى بما امرهم به من القتال، فهذا التنسيق يكسب الكلام جمالا ويمنح الخطبـة قوة، يستكمل عناصر التأثير بها، ويحمل السامعين علـى التتبـع والتركيـز وادراك مرامي الخطيب وتمام الانفعال بما يسمعون وحتى لا تهبط الخطابـة الـى مسـتوى المحادثة، ولكنها على كل حال تدل دلالة واضحة على شخصية الحجاج، وجبروتـه وعنف سياسته كما تدل على فصاحته وبلاغته. وهي معرض لضخامة الالفاظ، وقوة العبارات، والتهويل ما شاء التهويل بصور العذاب والهلاك والبوار والدمار حشـدت فيها هذه الصور، مشفوغة مما اعان على جلائها من تشبيهات، واستعارات، وشـعر غريب رهيب، وآيات انذار ووعيد، مع السجع المقبول والازدواج وتساوي الفواصل. ولا شك فيه ان الحجاج عنى عناية فائقة بتنميق خطبته، واضفى عليها من ضـروب التجويد، والوشي والزخرفة ما نهض بها الى هذا المستوى الرفيع، فكانـت صـورة ادبية رائعة تمثل السياسة والحكم اصدق تمثيل.

عبد الملك بن مروان

نموذج من خطبه

دخل عبد الملك بن مروان الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير سنة ٧١هـ فحمد الله واثنى عليه، وصلى عَلَى النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: ايها الناس: ان الحرب صعبة مُرّة، وان السّلم أَمْنٌ ومَسَرّة، وقد زبنتنا[١] الحرب، فعرفناها والفناها، فنحن بنوها، وهي امنا. ايها الناس، فاستقيموا عَلَى سُبل الهدى ودعوا الاهواء المردية وتجنبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلفونا اعمالَ المهاجرين الاولين وانتم لا تعلمون اعمالهم، ولا أظنكم تزدادون بعدَ الموعظةِ إلاَّ شراً. ولن نزداد بعد الاعذار اليكم والحجةِ عليكم إلاَّ عقوبة فمن شاء منكم ان يعود بعد لمثلها فليعد، فانما مثَلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعه[٢]

مَنْ يَصلَ نَاري بلا ذنب ولا تِرَةٍ

يَصلَ بنار كريمٍ غيرِ غَدّارِ[٣]

---

[١] زبنتنا وزبناها دفعتنا ودفعناها والزبن بمعنى الدفع ، ينظر : ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص٢٦٨.

[٢] قيس بن رفاعة الانصاري : شاعر جاهلي مقتدر وحكيم اقام علاقات وطيدة مع ملوك المناذرة في العراق وكذلك الغساسنة في الشام قبل الاسلام (ينظر : القيرواني زهر الاداب ج١ ص٦٨. الراوي ، ياسين ، (الدكتور) معجم الشعراء في لسان العرب، ط١، دار العلم للملايين ، (بيروت، ١٩٨١م) ص ص ٥١٩-٥٢٠ .).

[٣] ينظر: الجاحظ البيان والتبيين ج٢ ص٨٥، ابو علي القالي، الامالي، ج١ ص١٢، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢ ص١٤٣.

دراسة وتحليل الخطبة [1]

وكان طبيعيا ان نستمع الى عبد الملك يخطب بلغة الظافر المنتصر، الذي صحب الحروب، وقاسى صعبها ومرها، ومنحته ودها ونصرها، وان يتجه الى الناس فيدعوهم الى الاستقامة على سبل الهدى، فقد رأوا كيف تردي المطامع والاهواء، اربابها، ويجر فراق جماعات المسلمين الى الهوان والهلاك وليحفّ لهم بالاستقامة ما كان للسلف الصالح فليس لهم ان يطلبوا معاملة المهاجرين الاولين، وهم لا يعلمون اعمالهم، فأنما الجزاء من جنس العمل، ثم انتقل عبد الملك الى التقريع والتهديد، والانذار والوعيد، فليس لهم عنده بعد الاعذار والحجة الا العقوبة، فمن شاء ان يعود لمثل ما مضى فليفعل فستدور عليه الدائرة، وسيقيم عوجه، ويدرك عنده ثأره، ولن يبقى منه إلا ذكره السيء الملعن، يلهو به المقيم والمدلج الساري، وتمثل في ذلك بقول الشاعر وبهذا اشارت الخطبة الى ما كان من اهواء وفتنه وفراق للجماعة وحرب كُتِبَ لعبد الملك فيها النصر، وقد عكس هذا النصر ظلاله على الخطبة، فبدأ فيها عز المنتصر، وادلاله وقوته وتأديبه وتهديده، وبدأ عبد الملك خليفة لا يطغيه النصر ولا يحمله على القهر والبطش، فهو رزين حكيم مصلح جعل من الحادث عبرة، ومن النصر على العدو زاجراً، وتقدم للناس بالموعظة، وقرن النصيحة بالنذير والوعيد، وختم قوله متمثلا بالشعر، فكان موفقا في ذلك، اسعفته ثقافته ومعرفته بما يطابق الحال، ويناسب الموقف من الشعر، ولعل اول الخلفاء الامويين الذين نحوا هذا المنحى في خطابتهم، وللشعر في الاستشهاد به اثر عميق، يزيد الكلام بهجة، ويمنحه قوة، ويحمل النفوس على الارتياح اليه، والاقتناع به وليس هذا غريبا على عبد الملك، فقد عرف بغزارة العلم وسعة الاطلاع والدراية، وكان مجلسه منتدى العلماء والادباء والشعراء.

---

[1] ينظر: القالي، الامالي في اللغة، جـ١، ص١٢. القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشا، جـ١، ص٣١٦.

والخطبة سهلة الالفاظ والعبارات، قريبة المعاني تخاطب العقول والقلوب جميعا، فيها السجع والازدواج وان علب عليها الترسل.

وهذا نموذج آخر لإحدى خطبه بمكة حيث قال: (ايها الناس، اني والله ما أنا بالخليفة المستضعف[1] ولا بالخليفة المداهن[2]، ولا بالخليفة المأفون[3]، فمن قال برأسه كذا، قلنا له بسيفنا كذا[4]) [5]

عمر بن عبد العزيز[6]

نموذج من خطبه

ان عمر بن عبد العزيز كان امة وحده، اعاد سيرة الخلفاء الراشدين بعد ذهابها واقتدى بجده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجمع العدل والتواضع والنزاهة والرحمة والزهد والتقوى والورع والعفة والسهر في صالح الرعية. اهتمَ عمر بن عبد العزيز بدعوة الناس الى التقوى والعمل الصالح، وسمعنا منه ما سمعناه من ابن الخطاب في الحث على اصلاح السرائر، والتزامه بوضع الحقوق مواضعها وارتفع

---

[1] يقصد به عثمان بن عفان رضي الله عنه .

[2] يقصد به معاوية بن ابي سفيان .

[3] يقصد به يزيد بن معاوية ، والمأفون أي الضعيف العقل والرأي. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص١٩

[4] ينظر: ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج٢ ص١٤٢و٢٦٣ .

[5] الجاحظ، البيان والتبين ، ج٢ ص ٨٥، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج٢ ص١٤٢ . احمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ج٢ ص١٩٢ رقم ١٦٦.

[6] عمر بن عبد العزيز : هو عمر بن عبد العزيز بن مروان وامة ام عصام بنت عاصم بنت عمر بن الخطاب (رض) ولد سنة ٦١ للهجرة ٦٨١م تولى الخلافة سنة ٦٩ هـ قال عندما توفي علي زين العابدين بن الحسين (ع) ((ذهب سراج الدنيا وجمال الاسلام وزين العابدين)) وتوفي سنة ١٠١ للهجرة ودفن بدير سمعان ، ينظر اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ص ٢١٠-٢١٦ ، ابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص٥٣ و ٥٦ ، المسعودي مروج الذهب ، ج٢ ، ص١٦٨ .

على لسانه الصوت الذي خفت منذ ايام ابي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما (انه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) قال عمر بن عبد العزيز (اوصيكم بتقوى الله فأن تقوى الله خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله عز وجل خلف، واعملوا لآخرتكم، فأنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى امر دنياه، واصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم، واني والله لا اعطي احداً باطلا، ولا امنع احداً حقا، اني لست بخازن ولكني اضع حيث امرت، الا لاطاعة لي عليكم[1]) ويستمر عمر في اعلان دعوة الخلفاء الراشدين، واحياء السنن والشعائر الدينية والنبوية فيقول ما قاله ابو بكر وعثمان رضي الله عنهما (وانما انا متبع، ولست بمبتدع[2]، وقولهما (اني وليت عليكم ولست بخيركم) ولهذا قال عمر في خطبته الا اني لست بقاضٍ، ولكني منفذ له، ولست بمبتدع ولكني متبع، الا انه ليس لاحد ان يطاع في معصية الله عز وجل، الا اني لست بخيركم، وانما انا رجل منكم غير ان الله جعلني اثقلكم حملا[3].

وأحيا منطق الدين وروحه في خطبة حيث قال:

(ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، الا وانكم تعدون الهارب من ظلم امامه عاصياً، الا وان اولاهما بالمعصية الامام الظالم)[4].

---

[1] ينظر: ابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص٥٣ .

[2] ينظر: ابن عبد ربه الاندلسي ، العقد الفريد ج١ ص٢٧ ، المسعودي ، مروج الذهب ج٢ ص١٦٨ ، ابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص٥٦، وهذه الخطبة تبين ان المصدرين الرئيسين للشريعة الاسلامية هما الاول القرآن الكريم والثاني السيرة النبوية الشريفة وهذا من قواعد اصول القانون، أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ج٣ ص١٢٨ رقم ١١٨.

[3] ينظر: المسعودي ، مروج الذهب ج٢ ص١٦٨ ، ابن الجوزي ، تحقيق : محب الدين الخطيب ، مطبعة المؤيد مصر ، ١٣٣٨م ص٥٦ و١٩٨

[4] ينظر: ابن قتيبة،عيون الاخبارج٢ ص٣٤٣، ابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٥٦ و١٩٨، بن عبد ربه، العقد الفريد ج٢ ص١٤٣.

وفي خطبته[1] هذه متسع رحب للافاضة وللافصاح عن عنايته الواضحة باحياء معالم الدين وشرائعه وسنته وكانت ساحة عمر بن عبد العزيز سوقا نافعة للوعظ والارشاد والهداية ورفع منار الدين فكان يبث الوعظ ويتقبله ويطلبه ولهذا قرب العلماء والمصلحون والوعاظ والزهاد وكبار المتصوفة كالحسن البصري[2] وعبد الله بن الاهتم[3].

وقال عمر بن عبد العزيز في إحدى خطبه (أيها الناس انكم لم تخلقوا عبثا ولم تتركوا سدى) وان لكم معادا يحكم الله فيه بينكم، فخاب وحز من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم الجنة التي عرضها السماوات والارض. واعلموا ان الامان غداً لمن خاف ربه، وباع قليلا بكثير، وفانيا بباق، الا ترون انكم في اسلاب الهالكين وسيخلفكم من بعدكم الباقون حتى تردّوا الى خير الوارثين ثم انتم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا الى الله قد قضى نحبه وبلغ أجله، ثم تغيّبونه في صُدْع من الارض ثم تدعونه غير موسَّد ولا ممهّد، قد خلع الاسباب وفارق الاحباب، وواجه الحساب، غنياً عما ترك فقيراً الى ما قدّم، وايم الله اني لا اقول لكم هذه المقالة وما اعلم عند احد منكم من الذنوب اكثر مما عندي فأستغفر الله لي ولكم...

---

[1] ينظر: ابن قتيبة،عيون الاخبار ج٢ ص٣٤٣

[2] ينظر : الاصبهاني ، حلية الاولياء وطبقات الاصفياء، ج٢ ص١٣١ الذهبي، ابو عبد الله محمد بن احمد ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تحقيق : محمد علي البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ، مصر ١٩٦٣م ، ج١ ص٢٤٥ . .

[3] عبد الله بن الاهتم هو عبد الله بن عبد الله بن الاهتم وكان خطيبا ذا مقامات ووفادات من بني منقر وقد ولي خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عند الملوك ومن ولده شبيب بن شيبه وعبد الله وخاقان بن الاهتم، (ينظر: الجاحظ، البيان والتبين ج١ ص٣٥٥. ابن عساكر، تهذيب التهذيب، جـ٤، ص٣٠٧).

ثم قال وهي آخر خطبة له خطبها في خناصرة[1] ([2]وما تبلغنا عن احد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا الا سددناها، ولا أحد منكم الا وددت ان يده مع يدي، ولُحمتي الذي يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم، وايم الله اني لو اردت غير هذا من عيش او غضارة[3]لكان اللسان مني ناطقا ولا، عالما بأسبابه، لكنه مضى من كتاب الله ناطق وسنة عادلة، دل فيها على طاعته ونهى فيها عن معصيته) ثم بكى، فتلقى دموع عينيه بطرف من ردائه.

---

[1] خناصرة بلد بالشام من اعمال حلب .

[2] ينظر: الجاحظ، البيان والتبين ، ج٢ ص٩٨. الطبري ، تأريخ الرسل والملوك ،ج٨ ص١٤٠، ابن عبد ربه، العقد الفريد ج٢ ص١٤٤، ابو الفرج الاصفهاني، الاغاني ، ج٨ ص١٥٣ .

[3] الغضارة بمعنى السمعة والنعمة والخصب. ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٤٧٦.